التعليم حق من حقوق الإنسان في الإسلام

د. آمال حمزة المرزوقي*

* دكتوراة الفلسفة في التربية تخصص أصول التربية من جامعة عين شمس – جمهورية مصر العربية وذلك عام ١٤٠٧هـ.
كلية التربية – جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية.

التعليم حق من حقوق الإنسان في الإسلام

ملخص

يستهدف البحث الحالي الكشف عن موقع حق التعليم ضمن حقوق الإنسان كما عبر عنها الإسلام في مصدريه الأساسيين: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ثم ما تبعهما من اجتهادات لبعض من المفكرين والعلماء.

وفي سبيل هذا عرض البحث أولا تحليلا موجزا لحقوق الإنسان في الفكر العالمي، ثم بيّن العلاقة الوثيقة في عصرنا الحاضر بين حق التعليم وبقية حقوق الإنسان إلى الدرجة التي تنفي أحدهما إذا انتفى الآخر.

وأكد البحث على تلك المكانة العالية التي احتلها التعليم، والتعليم في النصوص الإسلامية الأساسية، ثم بيّن أن المجتمع بالتالي، وكذلك الفرد، كل منهما مسئول مسئولية دينية عن توفير التعليم لكل إنسان، وأن التعليم في التصور الإسلامي لم يقتصر على مجال معين وإنما اتسع باتساع آفاق الكون المختلفة، ويفتح الباب بالتالي للإنسان كي يقتحم كل المجالات، ما دام مسلحا بروح البحث العلمي ويعمّر قلبه بالإيمان بالله عز وجل.

كذلك أشار البحث إلى جمهور المستفيدين من حق التعليم، فهم كل أبناء المجتمع لا استثناء لفئة ما، إناثا وذكورا، فقراء وأغنياء أسوياء ومعاقين، أطفالا وكبارا. وهكذا، وبذلك بَعُد التعليم في الإسلام عن أي شبهة تجعله تعليما طبقيا للصفوة من الناس.

وكان لا بد للبحث أن يبيّن عددا من الطرق والأساليب التي عن طريقها يستطيع المربون أن يقوموا بواجبهم في تيسير سبل الحصول على حق التعليم، وكذلك بيان بعض الإجراءات اللازمة لتحقيق هذا الهدف.

وانتهى البحث إلى أن تمتع الإنسان في مجتمعنا المسلم بحقه في التعليم، وفقا للتصور العلمي التربوي الإسلامي الصحيح من شأنه أن يبث عوامل قوة في البناء الاجتماعي، مما يجعل أمتنا أمة قوية تستطيع أن تكون نموذجا تحتذي به الأمم الأخرى.

مقدمة :

من أهم ما تتميز به العملية التربوية «إنسانيتها» فموضوعها الأساسي هو الإنسان، ذلك لأنها تحاول أن تتناول «شخصيته» بالتكوين والتنشئة والتقويم والتطوير حتى يصبح إنساناً جديراً بالقيام بواجب الاستخلاف الذي أناطه به خالقه سبحانه وتعالى.

وإذا كان الإنسان هو «موضوع» التربية فهو كذلك «هدف» رئيسي لها، فكل ما تسعى التربية إلى تنشئة الإنسان عليه إنما يستهدف خيره وسعادته.

والتربية لا تستطيع أن تنجح في عملها إن لم تراع في كل خطواتها وبرامجها وإجراءاتها دوافع الإنسان الذي تربيه، وطبيعته، وما يحمله بالفطرة من قدرات واستعدادات.

وهكذا يكون الإنسان هو لحمة العملية التربوية وسداها.

وهو في كل هذا لا بد أن يكون إنساناً له كرامته التي تحترم وله حاجاته النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي لا بد أن تشبع بقدر ما يبذل من الجهد وبالقدر الذي يستحق من غير عنت ولا مذلة. وهو لا بد أن يمارس ما وهبه الله له من عقل وظيفته الأساسية «التفكير» حراً بغير خوف ولا قلق.

لقد ظهرت منذ الربع الأول من القرن العشرين نظم سياسية واجتماعية زعمت أنها ستهيئ للإنسان جنة أرضية يرفل فيها نعيماً وسعادة، وصدق كثيرون هذا الزعم خاصة وأن الدولة القائدة التي كانت تسمى الاتحاد السوفيتي قد استطاعت أن تكون القوة الثانية على مستوى العالم عسكريا واستطاعت كذلك أن تخرج من حيز الأرض لتطرق أبواب كواكب أخرى.

ثم إذا بالزيف ينكشف.. لقد تم التقدم السياسي والعسكري والتكنولوجي، الذي لا يمكن إنكاره، على حساب الإنسان.. تحول الإنسان إلى «وسيلة» لإضفاء هالات المجد والقوة على النظام القائم وزعمائه، ومن هنا

عندما جاءت اللحظة التاريخية المناسبة.. سقط البناء الإمبراطوري الضخم غير مأسوف عليه بغير طلقة رصاص واحدة، وهو حدث غير مسبوق في التاريخ.

ولا نبالغ إذا قلنا أن هذا الفشل المدوي إنما لأن هذا البناء الضخم قام على إنسان مهزوم من الداخل.. مشلول الإرادة، معطل التفكير الحر المتنوع مقطوع اللسان، مقهور العواطف، يسكن الخوف قلبه.

وجماع هذا كله أن الإنسان في هذا النظام السابق، كان فاقداً لحقوقه الأساسية.

وفي يقيننا أن «التعليم» يحتل موقع القيادة بين تلك الحقوق جميعاً...

فبقدر ما يحصل الإنسان على المعرفة بقدر ما تتسع دائرة حريته..

وبقدر ما يحصل الإنسان على المعرفة، بقدر ما يدرك مصادر الثروة ووسائل استغلالها، وبقدر ما يحصل الإنسان على المعرفة، بقدر ما يستطيع أن يدافع عن كرامته.. وهكذا.

وتشير كل نصوص الإسلام من قرآن وسنة إلى تقدير وتكريم للإنسان لم تعرفه عقيدة، ولم يعرفه مذهب من قبل.

وقد جاء التعليم في التصور الإسلامي في موقعه المأمول.. حقاً إنسانياً، بل واجباً كذلك لتفجير طاقات الإنسان من أجل عمارة الكون.

ومن هنا تجيء الدراسة الحالية.

مشكلة البحث:

تسعى الدراسة الحالية إلى أن تجيب عن التساؤل الرئيسي التالي، وهو: إلى أي حد وعلى أي وجه استطاع الإسلام أن يوفر للإنسان حقه في التعليم ضمن تصور عام لحقوق الإنسان؟

تساؤلات البحث:

والإجابة عن هذا التساؤل الرئيسي تستلزم محاولة الإجابة عن عدد من التساؤلات الفرعية:

١ - ما أهمية حقوق الإنسان بالنسبة لتربية الإنسان؟

٢ - ما أبعاد التصور العالمي لحقوق الإنسان عامة وحق التعليم خاصة؟

٣ - ما أبعاد التصور الإسلامي لحقوق الإنسان؟

٤ - ما أبعاد التصور الإسلامي لحق الإنسان في التعليم؟

أهمية البحث:

إن قدر الإنسان - في ظل الإسلام - رفيع، والمكانة المنشودة له تجعله سيداً في الأرض والسماء، ذلك لأنه يحمل بين جنبيه نفخة من روح الله وقبسا من نوره الأقدس، وهذا النسب السماوي هو الذي رشحه ليكون خليفة عن الله في أرضه.

وقد تعهد الله جماهير البشر برسله كي يقودوا القافلة البشرية ويهدوها الطريق، ثم جاء الإسلام بتعاليمه الخالدة من كتاب وسنة مقرراً للإنسان حقوقاً توفر له أمنه المنشود، وخير الحياة المأمول.

ولقد تنبهت المجتمعات إلى أهمية حقوق الإنسان، لكنها في البداية لم تتجاوز الجوانب السياسية والمدنية، ثم زادت حساسية الجماهير، وبدأ تطلعها إلى آفاق أعلى، فتقررت الحقوق: الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية.

ولما كان التصور الإسلامي مبنياً على ما قرره سبحانه وتعالى في قرآنه المجيد وسنة النبي ﷺ، يصبح هو الأنسب والأوفى للإنسان وفقاً للقاعدة التي تقرر أن صانع الشيء هو الأدرى بطبيعته وتشغيله وسد حاجاته، فالله هو خالق الإنسان، وبالتالي هو سبحانه وتعالى الأعلم بما هو حق للإنسان.

وإذ تسعى الدراسة الحالية لاستجلاء الخطوط العامة والملامح الرئيسية لحقوق الإنسان في الإسلام، لتكثف الجهد البحثي التحليلي على حق التعليم، فإنها تقدم بذلك خطوة على الطريق يمكن أن تفيد وتعين في بناء شخصية المسلم فرداً وتفيد وتعين في بناء الأمة الإسلامية.

أهداف البحث:

تسعى الدراسة الحالية أن تحقق الأهداف التالية:

- التعرف على الدور الذي يمكن أن تقوم به حقوق الإنسان في توفير المناخ الصحي الملائم لتنشئة الإنسان تنشئة سوية.
- الكشف عن الجوانب المختلفة لما توصل إليه المجتمع الدولي من حقوق للإنسان.
- تحليل الأبعاد المختلفة للتصور الإسلامي لحقوق الإنسان.
- إبراز المفاهيم والجوانب والركائز المختلفة للتصور الإسلامي بالنسبة لحق الإنسان في التعليم.

منهج البحث:

باعتبار الطبيعة الخاصة بقضية البحث ومشكلته - فإن المنهج الوصفي هو الأكثر ملاءمة للدراسة، حيث يتطلب في حالتنا هذه الاعتماد على الوصف التحليلي واستقراء النصوص الأصلية واستنباط المعاني والمفاهيم المتصلة بالموضوع ثم محاولة استخدام «التركيب» لتقديم صورة كلية تحاول من خلالها أن تستوفي جوانب القضية.

حقوق الإنسان في المنظور الدولي:

انطلقت حركة حقوق الإنسان بقوة ملحوظة خلال العقود الثلاثة الماضية مستأثرة بالاهتمام الكبير على المستوى الدولي العام، فقد توالت العهود الدولية والمواثيق والإعلانات الخاصة بحقوق الإنسان على المستوى العالمي، وعلى مستوى المنظمات الدولية والإقليمية، وتكاثرت المنظمات العالمية والقارية والإقليمية والوطنية التي تعمل في دائرة حماية حقوق الإنسان، وأصبح من الممكن أن نقول أن القضية قد فرضت نفسها وكأن هناك الآن هيكلا تنظيميا تتراوح وحداته بين مؤسسات رسمية وغير رسمية[١].

---

(١) محمد السيد سعيد: حقوق الإنسان بين الأيديولوجية والأخلاق العالمية. **مجلة السياسة الدولية**، مؤسسة الأهرام، القاهرة، العدد (٩٦) أبريل ١٩٨٩، ص٥٣.

ولعل الاهتمام بحقوق الإنسان يعود إلى عدة أسباب[٢]:

١ - أن حقوق الإنسان لم تعد كما كانت في الماضي مسألة فردية تعالج في نطاق القوانين والأنظمة الداخلية، بل أصبحت قضية «عالمية إنسانية» تهم كل إنسان، ولقد تجاوز الاهتمام بها حدود الدول ونطاق الدساتير المحلية وتحول إلى هم عالمي. ولم يكتف العالم بتكريس حقوق الإنسان والتشريعات الوطنية، بل سعى جاهداً لتدويلها ووضعها في حماية القانون العام.

٢ - أن حقوق الإنسان أصبحت في العقدين الأخيرين الشغل الشاغل لكل حكم أو نظام يطمح إلى تحصين نفسه بالشرعية الديمقراطية وإبعاد تهمة الديكتاتورية الاستبدادية عن ممارساته، ولهذا رأينا نظماً دولية - حتى وإن كانت متسلطة - تتنافس في إبعاد الشبهة عنها فتتبنى شعارات تشيد بحقوق الإنسان، وتتعهد برعايتها.

٣ - إن عظمة الدول تقاس - مع معايير أخرى - بمدى احترامها لهذه الحقوق والتزامها بها، وتوفير الضمانات القانونية والعملية لها. ويؤكد البعض أن ازدهار هذه الحقوق لا يتم إلا في نظام يحترم الحريات.

٤ - إن فقدان الحريات وتكبيل الحقوق أو تقييدها كان على مر العصور سببا من أسباب انهيار الحضارات والمجتمعات، فالحضارة العربية لم تعرف الازدهار والتألق إلا في العهود التي نعمت فيها الأمة بالحرية الفكرية المسئولة. وعندما بدأت الأمة تفقد هذه الحرية وتجد نفسها مكبلة بعديد من القيود التي تحد من حركة العقل، أخذت الحضارة تنزلق في طريق الانحدار.

وعلى الرغم من هذا التقدم الهائل في ميدان القانون والتنظيم الدولي، فإن

---

(٢) حسن إبراهيم عبدالعال: التربية وأزمة حقوق الإنسان في الوطن العربي. **مجلة دراسات تربوية**، عالم الكتب، القاهرة، الجزء (٥٨)، ١٩٩٣، ص١٤٩.

من الصعب أن نرى تقدما مواكباً في فكر حقوق الإنسان، وفي الفلسفة والنظرية السياسية المؤسسة على هذا الفكر. بل إن فكر حقوق الإنسان لا يزال يصارع التعقيدات والتناقضات الفلسفية والسياسية والقانونية التي يحفل بها منذ بداية تبلور هذا الفكر في ميدان مستقل للمعرفة. ويمكن القول بأن الفشل في حل المعضلات الفلسفية والقانونية والسياسية لهذا الفكر قد طبعته بطابع إبهامي لا ينكر، ويدعو ذلك بحد ذاته إلى فتح باب الاجتهاد خاصة بين الباحثين لتجلية أبعاده المختلفة.

وتثير القراءة الموضوعية في المصادر الغربية حول «حقوق الإنسان»، كمفهوم، العديد من التحفظات في ذهن الباحث بشأن صلاحية المفهوم وقدرته التفسيرية(٣):

ففي حين يرجعه البعض إلى الرشادة والعقلانية ويلتمس له جذوراً في الفكر الإغريقي ثم المسيحي مباشرة، يرى البعض الآخر أن مصدر الحق هو أولاً القيم والقانون الوضعي ثم العرف والعادة.

وفي الوقت الذي تذكر فيه معظم الكتابات أن مضمون الحق هو أن للإنسان، بحكم كونه إنساناً، بغض النظر عن دينه ولونه وجنسه وكل الفوارق، حداً أدنى من الحقوق المكفولة، ترى بعض الكتابات الأخرى أن مضمون الحق جماعي لا فردي.

وقد أدت المنفعة كفكرة محورية في مشروع التنوير الغربي في تطورها إلى إخضاع تحليل الظاهرة الاجتماعية والسياسية للمفاهيم الاقتصادية، فكما يبحث الإنسان بشكل عقلاني عن تعظيم منفعته في التبادلات الاقتصادية، كذلك يسعى إلى الوصول إلى «نقطة التوازن» بين منفعته ومنفعة الآخرين في علاقاته

(٣) هبة رؤوف عزت: **المرأة والعمل السياسي**. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الإمريكية، ١٩٩٥، ص٨١.

الاجتماعية والسياسية، وهو يحترم بذلك حقوق الآخرين كي يضمن احترامهم لحقوقه في ظل مجموعة توازنات واقعية، وقانون وضعي ينظم هذه الحقوق المتبادلة(٤).

مفهوم حقوق الإنسان إذن هو تركيز للقيم والمبادئ التي انتهى إليها الفكر الأوروبي والرأسمالي في تطوره التاريخي(٥)، كما أنه نموذج للمفاهيم التي يحاول الغرب فرض عالميتها، بل ويستغل ذلك سياسياً في كثير من الأحيان، كما يحدث في العلاقات الدولية في الدفاع عن حقوق بعض الأقليات بهدف زعزعة وضرب النظم السياسية المخالفة والخارجة عن «الشرعية الدولية» و«النظام العالمي الجديد»(٦). وإذا كانت بعض الكتابات الغربية تحاول تأكيد هذه «العالمية» للمفهوم، فإن دراسات أخرى، خاصة في علم الأنثروبولوجيا تؤكد على نسبية المفهوم وحدوده الثقافية، مؤكدة أهمية النظرة في رؤية حضارات أخرى للإنسان وحقوقه، انطلاقا من الفلسفة التي تسود الدراسات الانثروبولوجية الحديثة وهي التأكيد على التباين والتعددية في الثقافات والخصوصيات الحضارية لكل منطقة(٧).

ولو حاولنا أن نسبر أغوار الزمن تلمساً للأصول الأولى لفكرة حقوق الإنسان، وبحثا عن نقطة الانطلاق الفكري في هذا المضمار، لوجدنا أن ذلك مرتبط ببدء تظالم الناس، فحيثما يكون هذا التظالم، يوجد منطقيا «ظالم» و«مظلوم»، ويوجد معهما إحساس هذا الأخير «بحق مهضوم». ولما كان «الظلم من شيم النفوس» كانت نقطة البدء تلك التي بدأ الناس عندها يعيشون

---

(٤) المرجع السابق، ص٨٣.

(٥) محمد أحمد المفتي وسامي صالح الوكيل: النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية، دراسة مقارنة. **كتاب الأمة**، الدوحة، العدد (٢٥) يونية ١٩٩٠، ص٤١.

(٦) هبة رؤوف عزت، مرجع سابق، ص٨٤.

(٧) المرجع السابق، ص٨٥.

معا حياة مشتركة. ولما كان الإنسان «اجتماعيا بطبعه» - فلم يعش قط في عزلة تامة عن بني جنسه - وجب القول كذلك بأن نقطة البدء المذكورة هي ذاتها نقطة بدء البشرية على هذه الأرض، وبذلك يكون إحساس الإنسان بحقوقه عند الاعتداء عليها مشفوعاً بالتفكير فيها أياً كان مستوى هذا التفكير صنوا للحياة البشرية، شاركها البدء، ويشاركها البقاء(٨).

والربط بين الإحساس الشعوري والتفكير أو التنوير العقلي ميزة الإنسان على سائر الحيوان، فبغير العقل تقف الأحاسيس عند حدودها، ولكن بالعقل يربط الإنسان بين المقدمات ونتائجها، وبين الأسباب ومسبباتها، وبذلك يتبع العاقل الإحساس بالفكر، بل أنه يتبعها - عاجلاً أو آجلاً - بقدر ما من التخطيط للمستقبل، استزادة من أسباب السعادة والخير، وتجنبا لموجبات الأذى والشر.

والرجوع بتفكير الإنسان في حقوقه وبتدبره وسائل الذود عنها، إلى تلك الأعماق الأولى من التاريخ، يعني أن هذا الفكر من فعل الفطرة، وأنه رد فعل طبيعي لانفعال وأوضاع هي أيضا من طبيعة الأشياء في كل مجتمع، وإن كانت عدوانا وتغولاً على ما هو حق وعدل. ولذلك كانت في جانب الفكر الخاص بحقوق الإنسان كل معطيات الضمير الإنساني، والقيم الخلقية العليا، مما عرف مع الزمن باسم «القانون الطبيعي»، وكانت الحرية «حقيقة ميتافيزيقية» جوهرها الطبيعي الدائم «الإنسان». وبهذا المفهوم - الذي نراه فطريا - أخذت جانب الحرية والحقوق مختلف التعاليم السامية المتعاقبة المشبعة بالقيم والمثل العليا سواء أكانت تعاليم دينية أم علمانية. وكانت كل هذه العناصر (من أحاسيس وأفكار ومخططات وأديان وفلسفات) مصابيح على الطريق، كما كانت قوى دفع متعاقبة لمسيرة حقوق الإنسان عبر العصور. وكان من نتيجة ذلك التأصيل أيضا القول

(٨) عثمان خليل عثمان: تطور مفهوم حقوق الإنسان. **مجلة عالم الفكر**، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، العدد الرابع، م١، يناير، مارس ١٩٧١، ص١٢.

بحقوق الإنسان «الطبيعية»، يستمدها هذا «الإنسان» من الطبيعة ذاتها - لا من تشريع من صنع البشر - وتكون هذه الحقوق بالتالي لصيقة به كإنسان - مجرداً عن أي وصف - ومن ثم تكون حقوقه وحرياته الأساسية أسبق من أي تنظيم سياسي وأقوى منه وأعلى قدراً، وأشمل نطاقاً، وأبقى عمراً.

والمتتبع للتطور التاريخي لنسق المعايير الدولية المنظمة لحقوق الإنسان سرعان ما سوف يلاحظ توسع المجالات التي يدلى فيها «قانون حقوق الإنسان» بدلوه، هذا من ناحية، وتطور الآليات الدولية لحماية حقوق الإنسان من ناحية ثانية، ففي حين اقتصرت الإعلانات الدولية على ترديد بعض مظاهر الحقوق والتأكيد على بعضها وإغفال البعض الآخر، تناولت الشرعية الدولية ذلك بشكل متناسق ومتعاظم، حتى أنه أصبح بالوسع الحديث عن فرع للقانون الدولي العام له ذاتيته المستقلة هو القانون الدولي لحقوق الإنسان(٩).

لقد بدأت الإشارات متواضعة في ميثاق عصبة الأمم إلى ضرورة حماية حقوق الإنسان، إلا أن الويلات التي شهدتها الإنسانية في خضم الحرب العالمية الثانية من جرائم الحرب وإبادة الأجناس والإعدام الجماعي للأسرى والمدنيين هي التي جعلت من قضية حقوق الإنسان قضية غاية في الإلحاح لدى أعضاء الجماعة الدولية، إذ أكدت شعوب الأمم المتحدة في ديباجة الميثاق إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية وبكرامة الإنسان وقدره وأن ترفع مستوى الحياة في جو من الحرية أرحب. بل إن المادة الأولى من الميثاق قد نصت صراحة في بندها الثالث على أن أحد أهداف الأمم المتحدة تعزيز وتشجيع احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للناس جميعا بلا تمييز بسبب العنصر أو الجنس أو اللغة او الدين، كما تضمنت المادة (٥٥) النص في البند (ج) على نفس المعنى، وأضافت إليه حقوق

(٩) الأمانة العامة لاتحاد المحامين العرب: تقرير عن حقوق الإنسان في الوطن العربي بين الشرعية والممارسة، قدم إلى الدورة الثانية للاتحاد بالخرطوم (٢-٥/١٩٨٦) منشور - في (أزمة حقوق الإنسان في الوطن العربي)، مركز اتحاد المحامين العرب للبحوث والدراسات القانونية ١٩٨٩، ص١٨٥.

الشعوب والحق في تقرير المصير، وعدداً من الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتعهدت الدول الموقعة على الميثاق على بلوغ تلك المقاصد، وبهذا ارتفع التزام الدول باحترام حقوق الإنسان إلى مستوى الالتزام الدولي.

ثم تطورت وتواترت بعد ذلك المواثيق الدولية من إعلانات واتفاقيات وعهود وبروتوكولات التي تفصل في موضوع الحماية الدولية لحقوق الإنسان وتضع الضمانات لتأمين الحماية وفعاليتها في مجال الممارسة.

وبدأ الأمر بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في العاشر من ديسمبر ١٩٤٨. ويعتبر هذا الإعلان الأساس الذي انطلقت منه بعد ذلك كل المواثيق والاتفاقات الدولية والإقليمية المتعلقة بحقوق الإنسان، فقد تضمن الإعلان العالمي على الحقوق المدنية والسياسية، والحق في المساواة وعدم التمييز، وفي الحرية، وحظر الاسترقاق، وحظر التعذيب، والمعاملة، أو العقوبة المهينة للإنسانية، والحق في الشخصية القانونية، وفي التقاضي وخطر الاعتقال والحجر التعسفي، والنص على مبدأ الشرعية الجنائية، وأن المتهم بريء حتى تثبت إدانته، وحرمة الحياة الخاصة والأسرة والسكن والمراسلات، وحرية التنقل، واللجوء السياسي، وحق التمتع بالجنسية وحق الزواج بالتراضي وتكوين الأسرة، وحق التملك، وحرية الفكر والوجدان والدين، وحرية الاجتماعات والجمعيات وحرية مباشرة الحقوق السياسية وتولي الوظائف. كما نص الإعلان على العديد من الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كالحق في العمل وفي الأجر العادل وفي تأسيس النقابات والانضمام إليها وفي الراحة والإجازة، وفي مستوى مناسب من المعيشة وحق الأمومة والطفولة في الرعاية والمساعدة والحق في التعليم وفي المشاركة في حياة المجتمع وثقافته(١٠).

(١٠) المرجع السابق، ص١٨٦.

وعلى الرغم من اغتباط الناس وترحيبهم بالإعلان، لم يفت المفكرين أن يذكروا أنه ليس إلا مجرد إعلان، والإعلان نوع من القرارات الدولية التي توقعها الدول بسهولة لأنه ليس ملزماً لأحد، ومن هنا بذلت جهود كبيرة حتى خرجت الأمم المتحدة في ١٩٦٦/١٢/١٦ بميثاقين اختص كل منهما بفئة من فئات حقوق الإنسان، هذان الميثاقان هما: الميثاق الدولي لحقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والثاني هو الميثاق الدولي لحقوق الإنسان الدينية والسياسية. هذان الميثاقان مبنيان على نفس المبادئ التي تضمنها إعلان حقوق الإنسان، ولكنهما أكثر تفصيلاً، فإن كل ميثاق يراد له أن يصبح بمثابة عهد تقطعه على نفسها كل دولة في العالم، ولذلك يجب أن تكون نصوصه صريحة جلية، لا يتعب القانونيون في تأويلها أو تخريجها. وبينما نرى الإعلان يتوخى الإيجاز، ولا تكاد معظم بنوده أن تشتمل على أكثر من فقرة واحدة، نرى الميثاقين يحللان المعاني والمبادئ التي تشمتلها البنود بحيث يكون كل بند في كثير من الأحيان مشتملا على عدة فقرات(١١).

وكان حتما للمسيرة «الفكرية» أن تتبلور مع الزمن حقائق عملية، وذلك بأن تضغط بقوة مثاليتها وبوحي الضمير الإنساني والقانون الطبيعي ومكانة المفكرين على السلطان العامة المنوط بها تنظيم المجتمع ووضع التشريعات اللازمة له. وفي هذا الصدد يمكن تسجيل الملاحظات التالية(١٢):

١ - هناك اتجاه واضح في الدساتير الحديثة نحو التوسع في هذا الأسلوب من أساليب ضمانات الحقوق والحريات، ويهدف هذا التوسع إلى أن يوفر لها ما تمتاز به النصوص الدستورية من الاستقرار والثبات اللذين لا

(١١) محمد عوض محمد: حقوق الإنسان بين النظرية والتطبيق. في مجلة عالم الفكر، مرجع سابق، ص٨٤.

(١٢) عثمان خليل عثمان، مرجع سابق، ص١٧.

تتمتع بهما القوانين العادية، ومن ثم لا تكون هذه النصوص طيعة في يد الأغلبيات البرلمانية المتقلبة في ذاتها أو في اتجاهها.

٢ - كذلك يلاحظ الاتجاه الحديث نحو العناية المتزايدة بالنوع الجديد من الحقوق المعروف باسم «الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية»، وذلك تحت ضغط الأفكار الحديثة التي تعنى بهذه الحقوق أكثر من عنايتها بالحقوق التقليدية المسماة «الحقوق المدنية والسياسية»، وقد أدى هذا الاتجاه إلى اصطباغ الدساتير الحديثة بهذا الطابع المزدوج الذي يجعل الدستور في الواقع دستورين، أحدهما سياسي والآخر اجتماعي.

٣ - نلاحظ أيضا ازدياد وتقارب الأحكام الخاصة بحقوق الإنسان في الدساتير الحديثة في العالم، وذلك بفضل عملها على ترسم خطى «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» الذي ارتضته الدول الأعضاء في الأمم المتحدة كمثالية تتقيد بها أدبياً، ونموذجاً يحتذى في تشريعاتها الداخلية.

وتكشف دراسة مختلف الوثائق الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان عن مفهوم شامل ينطوي على ثلاث فئات من الحقوق، يتفق كل منها مع جيل معين من حقوق الإنسان، ساهمت أقسام متباينة من البشرية في صياغته(١٣):

فالفئة الأولى هي الحقوق السياسية والمدنية وتتمثل في حقوق الحياة والحرية والكرامة الشخصية البدنية والمعنوية وضمان المحاكمة العادلة وحرية العقيدة، والتعبير والتنظيم المهني والسياسي.. إلخ.

والفئة الثانية هي ما يمكن تسميته بحقوق الشعوب أو الحقوق الجماعية، مثل حقوق تقرير المصير والسلام والتنمية والبيئة، فضلاً عن استخدام اللغة الوطنية وصيانة الثقافة القومية.

---

(١٣) مصطفى كامل السيد: حقوق الإنسان في المجتمع الدولي، قضايا نظرية. في مجلة السياسة الدولية، مرجع سابق، ص٧٢.

والفئة الثالثة هي الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، مثل حقوق العمل وفقاً لأجر عادل، والتعليم والعلاج، والدخل المناسب.. إلخ.

وفي وطننا العربي فإن الخطوة الأولى على طريق الاهتمام بحقوق الإنسان جاءت متمثلة في قرار مجلس الجامعة في ١٩٦٦/٩/١٢ بتشكيل لجنة خاصة في الأمانة العامة لدراسة موضوع المساهمة في الاحتفال بعام ١٩٦٨ عاماً دولياً لحقوق الإنسان طبقاً لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ ١٩٦٣/١٢/١٢. وقد أعقب هذا القرار قرار آخر من مجلس الجامعة بتاريخ ١٩٦٧/٣/١٨ بتشكيل لجنة توجيهية لحقوق الإنسان (بجانب اللجنة الخاصة في الأمانة العامة) تضم ممثلين عن دول الجامعة لمتابعة وتنفيذ برنامج الاحتفال بالعام الدولي لحقوق الإنسان. ولما كانت الجمعية العامة قد أصدرت قرارها في ١٩٦٧/٣/٢٣ بدعوة الدول الأعضاء إلى دراسة موضوع إنشاء لجان إقليمية لحقوق الإنسان، فقد أوصت اللجنتان العربيتان المشكلتان بالاستجابة إلى هذه الدعوة، على أن تتم في إطار المنظمات الحكومية والإقليمية(١٤). وأخذاً بهذه التوصية أصدر مجلس الجامعة قراره في ١٩٦٨/٩/٣ بإنشاء لجنة إقليمية عربية دائمة لحقوق الإنسان، وهي كسائر اللجان الدائمة في الجامعة تماثلها من حيث التشكيل وطريقة العمل. وطبقاً لخطة العمل التي وضعتها هذه اللجنة، فهي تختص بكل الأمور التي تتعلق بحقوق الإنسان العربي، وتنمية وغرس الوعي بحقوق الإنسان لدى الشعب العربي.

وعندما بدأ الاستعداد لعقد المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان في يونيه ١٩٩٣، سعت دول عربية إلى بلورة وجهة النظر العربية في المقترحات التالية(١٥):

---

(١٤) محمد عصفور: ميثاق حقوق الإنسان العربي، ضرورة قومية ومصيرية. **مجلة المستقبل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد (٥٥)، سبتمبر.

(١٥) أحمد يوسف القرعي: رؤية عربية للمؤتمر العالمي لحقوق الإنسان. **مجلة السياسة الدولية**، الأهرام، القاهرة، العدد (١١١)، يناير ١٩٩٣، ص٧٢.

١ - تقييم التقدم الذي أحرز في مجال حقوق الإنسان، والعقبات التي تحول دون إحراز تقدم بشأنه منذ اعتماد الإعلان العالمي سنة ١٩٤٨، واتخاذ الإجراءات الفعالة لتنفيذ معايير ومواثيق حقوق الإنسان خاصة المتعلقة بإزالة الاحتلال الأجنبي.

٢ - عدم التدخل في الشئون الداخلية للدول والمساس بسيادتها بحجة حماية حقوق الإنسان.

٣ - تأكيد العلاقة بين التنمية والمديونية والديمقراطية والتمتع بكافة حقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والمدنية.

٤ - التطبيق العالمي لحق الشعوب في تقرير المصير من أجل تحقيق حماية حقوق الإنسان الاقتصادية بكافة الوسائل المتاحة.

٥ - إزالة التمييز العنصري بكافة أشكاله وخاصة الفصل العنصري.

٦ - وضع المعايير الكفيلة بتفادي الازدواجية والانتقائية في تطبيق معايير حقوق الإنسان.

٧ - مراعاة الحقوق النقابية والدينية والحضارية عند وضع المبادئ التوجيهية.

٨ - دراسة التحديات الحديثة التي تعوق أعمال حقوق الإنسان وخاصة حقوق المهاجرين.

٩ - زيادة فعالية نشاط الأمم المتحدة في مجال حقوق الإنسان.

١٠ - الحق في بيئة نظيفة سليمة كحق أساسي من حقوق الإنسان.

وفي سبتمبر سنة ١٩٩٤ صدّق مجلس جامعة الدول العربية على الميثاق العربي لحقوق الإنسان، وأبرز ما جاء فيه[١٦]:

المادة (٢): تشهد كل دولة طرف في هذا الميثاق بأن تكفل لكل إنسان

---

(١٦) عيسى شيفجي وحلمي شعراوي: **حقوق الإنسان في إفريقيا والوطن العربي**. مركز البحوث العربية، القاهرة، ١٩٩٤، ملحق رقم (٥)، ص٣٧١.

موجود على أراضيها وخاضع لسلطتها حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة فيه دون أي تمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد أو أي وضع آخر. . . .

حقوق الإنسان في الإسلام

قبل أن نمضي للإبانة عن التصور الإسلامي لحقوق الإنسان نود إثبات ما يلي:

١ - إن أهم غاية للشرع الإسلامي هي تكريم الإنسان وتحريره[١٧] وتحقيق العدل والسعادة في الدنيا والآخرة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾[١٨]، بهذا الأسلوب الذي يفيد - كما يقرر علماء البلاغة - حصر الرسالة الإسلامية في تحقيق الرحمة العامة الشاملة للعالمين جميعاً، على اختلاف أجناسهم وألوانهم، وعلى امتداد زمانهم ومكانهم، حين يستجيبون لها ويتضيئون بنورها، كما يقول سبحانه: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾[١٩]، ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾[٢٠].
وتحقيق هذه الرحمة السابغة لا يكون إلا بتحقيق العدل والمساواة والكرامة والحرية للناس جميعاً، في ظل من الشعور بالأخوة الإنسانية والنسب الواحد، ذلك الشعور الذي يجعل هذه الحقوق الإنسانية أمراً فطرياً طبيعياً، وقدراً مشتركاً بين جميع أفراد السلالة البشرية، يستند إلى وحدة الأصل والمنشأ، وتساوى الأخوة في الحقوق والواجبات، ولذلك يؤكد

(١٧) زكريا البري: الإسلام وحقوق الإنسان. مجلة عالم الفكر، مرجع سابق، ص١٠٧.
(١٨) الأنبياء/ ١٠٧.
(١٩) النحل/ ٨٩.
(٢٠) الإسراء/ ٨٢.

القرآن هذا ويلفت الأنظار إليه فينادي «يا بني آدم» في آيات كثيرة، منها: ﴿**يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾(٢١)، ﴿**يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي**. . .﴾(٢٢).

٢ - إن الإسلام - كشريعة سماوية جاءت لهداية البشرية، وإخراجها من ظلمات الجهل والبغي والتعصب والاستعباد إلى نور العلم والعدل والسماحة والحرية لا يؤخذ ولا تعرف أحكامه من السلوك العملي لبعض المسلمين، وبخاصة في عصور الجهل والضعف والتفرق، والتأثر والانفعال بمعاملة أعدائهم ومحاربتهم لهم حرباً تخرجهم عن صوابهم وآداب دينهم، وإنما تؤخذ الأحكام من المنابع الإسلامية الطاهرة: قرآناً كريماً، وسنة نبوية، وما يرجع إليها، ويستأنس لها مع ذلك بالتطبيق السليم الذي لقيته أو تلقاه، في مختلف العصور من صدر الإسلام إلى الآن، وكل أحد في الإسلام يؤخذ منه ويرد عليه، ما عدا رسول الله - ﷺ - المبلغ عن ربه، والذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى(٢٣).

٣ - إن الإسلام قد بلغ في اهتمامه بما تتضمنه حقوق الإنسان إلى الحد الذي تجاوز بها مرتبة «الحقوق» عندما اعتبرها «ضرورات»، ومن ثم أدخلها في إطار «الواجبات»، فالمأكل والملبس والمسكن والأمن والحرية في الفكر والاعتقاد والتعبير، والعلم والتعليم، والمشاركة في صياغة النظام العام. . إلخ، كل هذا الأمور، هي في نظر الإسلام ليست فقط «حقوقا» للإنسان من حقه أن يطلبها ويسعى في سبيلها ويتمسك

---

(٢١) الأعراف/ ٣١.
(٢٢) الأعراف/ ٣٥.
(٢٣) زكريا البري، مرجع سابق، ص١٠٨.

بالحصول عليها، ويحرم صده عن طلبها، وإنما هي «ضرورات واجبة» لهذا الإنسان. . . بل إنها «واجبات» عليه أيضا(٢٤).

وإذا أردنا أن نبحث المعنى الإسلامي «للحق»، فسوف نجد في كتب اللغة أن الحق هو نقيض الباطل. وتاريخنا لم يرد في فكره السياسي الإسلامي تعريف للحق بمدلوله القانوني الحالي، إلا أنه عادة تستعمل الكلمة بمعنى «الثبوت»، فيقال لفلان الحق في كذا، أي ثبت له كذا(٢٥).

ولكن علماء الشريعة اصطلحوا على استخدام الكلمة بما يفيد ثلاث مستويات(٢٦):

أ - حقوق الله، وهي الحقوق المتعلقة بواجبات العبادة وما تقتضيه المصالح العامة كإقامة الحدود ومجمل ما يتعلق بحماية المصالح والكيان الاجتماعي العام. وقد كان إطلاق الأصوليين على هذه الحقوق تعبير «حقوق الله» - والله سبحانه وتعالى غني عن الحقوق - للبرهنة على عظم خطرها وشمولها نفعها.
وسمى الكثير من هذه الحقوق في لغة القوانين الدستورية الحديثة بأنها «حقوق الدولة» أو «الحق العام».

ب - حقوق العباد، وهي التي تتعلق بالمصلحة الخاصة للأفراد، وهي حقوق ليست فطرية، بل مكتسبة نتيجة اعتراف القانون بأنواع معينة من المعاملات.

---

(٢٤) محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان. **سلسلة عالم المعرفة**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد (٨٩)، مايو ١٩٨٥، ص١٥.

(٢٥) مصطفى كمال وصفي: المسلمون وحق الانتماء السياسي. **مجلة المسلم المعاصر**، العدد (١٤) ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص١١٢.

(٢٦) علي حسن القريشي: دراسة تحليلة لمقومات التربية السياسية في ضوء القرآن والسنة. رسالة دكتوراه، كلية التربية، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٦، ص١٣٦.

وكثير من هذه الحقوق يدخل ضمن الحقوق والحريات الشخصية المطروحة في الدساتير الحديثة.

جـ - الحقوق المشتركة بين الله والعباد، وهي التي يغلب في بعضها حق الله، كحد القذف كما قد يغلب في بعضها الآخر حق العباد كحق القصاص.
إذن فالحق في اصطلاح فقهاء الشرعية الإسلامية له معنى عام قد يعني حق الله، وقد يعني حقاً شخصياً - مالياً أو معنوياً. وقد يعني حقاً مشتركاً بين الله والعباد. والمعنى الدستوري الحديث للحقوق العامة يمكن أن يقابل في كثير من مضامينه معنى الحق في التفكير الإسلامي المشار إليه(٢٧).

ولا نستطيع إن نزعم للدراسة الحالية إمكان استغراق كافة حقوق الإنسان في المنظور الإسلامي، فذلك يحتاج إلى دراسات كثيرة متعددة، ومن هنا فسوف نقتصر - وبإيجاز شديد - على عدد محدود من هذه الحقوق، مرجئين إبراز حق الإنسان في التعليم إلى جزء خاص موسع باعتباره الغاية الرئيسية للدراسة:

١ - **حق الحياة والأمن**: فالحق في الحياة مبدأ أعلنه الإسلام بنزول القرآن وبعثة محمد ﷺ، فأضاء به الحياة في الجزيرة العربية، وما لبث أن أضاء دولتها بالأمن لكل إنسان بعد أن كان القتل في الجزيرة أمراً عادياً في حياتهم، بل مبعث فخر بين قبائلهم المتفاخرة وكذلك الأوضاع في كثير من ممالك الدنيا يسودها الظلم وتستحل الحرمات والدماء، وقد ضلت عن شرائع الأنبياء والمرسلين السابقين(٢٨).. حتى جاء الإسلام بأمر الله: ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً**﴾(٢٩)، وذكرهم

(٢٧) محمد ضياء الدين الريس: **النظريات السياسية الإسلامية**. دار التراث، القاهرة، ١٩٧٩، ص٣٠٦.
(٢٨) عبدالحفيظ نصار: **الإعلان الإسلامي العالمي لحقوق الإنسان ومقارنته بالإعلان العالمي لهيئة الأمم المتحدة**. دار الهدى للمطبوعات، الإسكندرية ١٩٩٧، ص١٠.
(٢٩) الإسراء/ ٣٣.

بسابق أمره وقضائه ﴿**وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس**﴾[٣٠]، وقوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»[٣١]، وقوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار»[٣٢].

وحياة المعاصرين ممن ليسوا على ديننا مصونى، فقد روى البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»، فالزمن والسلامة ليسا مكفولان للمسلمين وحدهم، بل ولغير المسلمين ممن لم يسيئوا إلينا أو يقاتلونا أو يخرجونا من ديارنا، وعلينا أن نعدل معهم ونحسن معاملتهم، قال تعالى: ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون**﴾[٣٣].

والمسلمون مأمورون أن يوفروا الأمن والسلامة لمن يطلبها حتى ولو كان كافراً، قال تعالى: ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره، حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه**﴾[٣٤]. إن هذا التوجيه القرآني إنما يؤكد أن الله وهب نعمة الحياة للإنسان، وجعل حياطتها كلاً وجزءاً، صيانتها مادة ومعنى في طليعة الأهداف التي أبرزها الدين، وتحدث فيها الرسل مبشرين ومنذرين. ولا عجب فإن إشقاء حيوان وإزهاق روحه ظلما يعده الله العدل الرحيم جريمة يدخل فيها الإنسان النار[٣٥].

---

(٣٠) المائدة/ ٤٥.

(٣١) صحيح البخاري، طبعة الشعب، القاهرة، ١٣٧٨هـ، ص٩، كتاب الديات، ص٩، ص٣.

(٣٢) المرجع السابق، ص٥.

(٣٣) الممتحنة/ ٨، ٩.

(٣٤) التوبة/ ٦.

(٣٥) محمد الغزالي: **حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة**. دار الكتب الإسلامية، القاهرة ١٩٨٣، ص٥٠.

قال ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»(٣٦).

وروى النبي ﷺ: «إن رجلاً أصابه ظمأ شديد، فنزل بئراً ليرتوي من مائها، فلما خرج منها رأى كلباً يلهث يلحس الثرى من العطش، فقال: لقد أصاب الكلب من الظمأ مثل الذي أصابني، فنزل البئر وملأ خفه وسقي الكلب فشكر الله له فغفر له»(٣٧).

وهكذا نرى أن إراحة حيوان وحفظ حياته باب إلى رضوان الله، وإتعاب حيوان وإهدار حياته باب إلى سخطه.

فإذا كانت هذه هي نظرة الإسلام إلى قيمة الحياة في المخلوقات الدنيا، فما تكون عنايته، وجائزته لمن يدعم حق الحياة بين الناس؟ وما تكون نعمته وعقوبته لمن يستهين بهذا الحق(٣٨)؟

إن القرآن الكريم يعد إزهاق الروح جريمة ضد الإنسانية كلها، ويعد تنجيتها من الهلاك نعمة على الإنسانية كلها: «إنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً»(٣٩).

٢ - المساواة: كما أن الإسلام في العقيدة هو دين الوحدانية الإلهية حيث دعا إلى عبادة الواحد الأحد نجده كذلك هو دين الوحدة الإنسانية الجماعية، فالناس جميعاً سواء بالنسبة للأحكام الإسلامية، وهو يقرر الوحدة بأصل التكوين، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿**وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون**﴾(٤٠)، ويقول

(٣٦) رواه البخاري.
(٣٧) صحيح البخاري، ص٣، في المظالم والغضب، ص١٧٤.
(٣٨) محمد الغزالي: حقوق الإنسان، ص٥١.
(٣٩) المائدة/ ٣٢.
(٤٠) يونس/ ١٩.

سبحانه: ﴿**كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾(٤١).

فقد كان الناس في أصل التكوين تجمعهم الوحدة، لكن الاختلاف عرف طريقه إليهم بتنازع الأهواء واختلاف المصالح وتباين النوازع، ولو ترك الأمر يسير على هذا النحو فإن تصادم الإرادات كان يمكن أن يوقع البشرية في هوة لا قرار لها، ومن هنا كان إرسال الرسل، وكان كتاب الله ليصبح هو الميزان الهادي إلى الطريق المستقيم ليعود التآلف والتآزر بين الناس.

ولقد أكد الله عز وجل أن أصل التكوين الإنساني واحد، وأن الطبيعة الإنسانية واحدة، فيجب أن تكون المعاملة الإنسانية واحدة والتكليف واحداً(٤٢)، وإلا كانت تفرقة من غير مسوغ، لأن مقتضى المنطق الإسلامي أنه ما ثبت لأحد المثلين يثبت للآخر. وإذا توزعت الأرض، فإنهم يتلاقون على الاتحاد كما ابتدءوا به، يقول الله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي تساؤلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا**﴾(٤٣).

ولقد جعل القرآن الكريم اختلاف الناس شعوباً وقبائل للتعارف والتعاون، لا للتباغض والتنازع، ولذلك قال سبحانه: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير**﴾(٤٤).

---

(٤١) البقرة/ ٢١٣.

(٤٢) محمد أبو زهرة: **المجتمع الإنساني في ظل الإسلام**. مجمع البحوث الإسلامية: التوجيه الاجتماعي في الإسلام، القاهرة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢، جـ٢، ص٢٣.

(٤٣) السناء/ ١.

(٤٤) الحجرات/ ١٣.

فاختلاف الشعوب له غاية جليلة أرادها الله سبحانه وتعالى وهو التعارف، وهذا التعارف له ظواهره، الأولى: اللقاء على مودة وتراحم في أمن وسلام لا في حرب وخصام، والثانية: التعاون على أن ينتفع الإنسان بكل خيرات الأرض، بحيث ينتفع كل إقليم بما في الإقليم الآخر من خير، ويجده بما عنده من فائض في مقابل أن ينتفع هو بما عنده، فإذا كانت الأرض مختلفة فيما تنتج، فالإنتاج كله للإنسانية كلها، فتكون تفرقة الأقاليم ليكون الاستغلال كاملا، فتستغل الأرض في كل أجزائها مهما تتباعد وتتفرق. الثالثة: من الظواهر تكريم الإنسان في هذه الأرض، فلا يوجد تعارف إذا كان إقليم يحتقر إقليماً، لأن ذلك يكون تناكراً ولا يكون تعارفاً، ولا بد أن يحترم أهل الأرض حرية أهلها، وإلا فلا يكون تعارف، لأنه إذا كان أساس العلاقات الإرهاق النفسي وعدم احترام الحرية الشخصية لا يكون ذلك تعارفاً، بل يكون استعباداً أو استرقاقاً، أو استعماراً(٤٥).

لقد كانت وثبة بالإنسانية لم يعرف لها التاريخ نظيراً، ولا تزال إلى هذه اللحظة قمة لم يرتفع إليها البشر أبداً، بل لقد كانت نشأة أخرى للبشرية يولد فيها «الإنسان» الأسمى! الأمر الذي تراجعت عنه البشرية، ولم تبلغ إليه أبداً إلا في ظل هذا المنهج الرباني(٤٦). ويتعقب الإسلام نطاق التفاوت والتفاضل - إلا بالتقوى والعمل الصالح - في كل صورها وملابساتها وأسبابها، ليقضي عليها جميعاً، فهذا النبي محمد ﷺ، ما يفتأ القرآن يذكر الناس أنه بشر كسائر البشر، وما يفتأ النبي محمد ﷺ ذاته يكرر هذا المعنى، إذ كان نبياً محبوباً من قومه مبجلاً، فخيف أن ينقلب ذلك الحب وهذا التبجيل إلى تأليه أو قدسية لا تكون إلا لله، فها هو ذا يقول لقومه: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبدالله ورسوله»(٤٧). ويقول، وقد خرج على جماعة

(٤٥) محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص٢٤.
(٤٦) سيد قطب: **العدالة الاجتماعية في الإسلام**. دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩، ص٤٥.
(٤٧) رواه البخاري.

فوقفوا له تبجيلاً: «من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار»(٤٨).

وخوفا من أن يقدس أهل محمد نبيهم ينبههم ﷺ إلى أنه لا يملك لهم من الله شيئاً: يا معشر قريش لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً»(٤٩).

وحين أصابت محمداً ﷺ لحظة حرص بشري، فانصرف عن الرجل الفقير ابن أم مكتوم إلى الوليد بن المغيرة سيد قومه، عاجله التنبيه القرآني ليرد للمساواة المطلقة معاييرها الكاملة(٥٠).

وحين كان بعض ذوي الثراء والأنساب يأنف أن يتزوج من الفقراء والفقيرات جاء أمر الله: ﴿**وانكحوا الأيامى منكم، والصالحين من عبادكم وإمائكم أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله، والله واسع عليم**﴾(٥١).

وقفز الإسلام بمكانة المرأة إلى موقع اختلف كثيراً عما كان عليه من قبل، فقام محمد ﷺ يتلو على البشر آيات الله عز وجل في كون النساء والرجال من جنس واحد، لا قوام للإنسانية إلا بهما كما أشرنا في الآية الأولى من سورة النساء، والآية (١٣) من سورة الحجرات.

وكان ﷺ يقول: : «إنما النساء شقائق الرجال»(٥٢). وقام ﷺ كذلك يتلو على العالم في جزاء المؤمنات كالمؤمنين آيات من الله تعالى، مثل قوله: ﴿**من**

---

(٤٨) رواه أبو داود والترمذي.
(٤٩) متفق عليه.
(٥٠) سيد قطب، مرجع سابق، ص٤٧.
(٥١) النور/ ٣٢.
(٥٢) رواه أبو داود، انظر صحيح الجامع الصغير، حديث رقم (٢٣٢٩).

عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾(٥٣).

وقوله تعالى في أولى الألباب الذين يذكرونه كثيرا ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ويدعونه: ﴿**فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾**(٥٤).

والنساء يشاركن الرجال في العبادات الاجتماعية كصلاة الجماعة والجمعة والعيدين، فتشرع لهن، ولكن لا تجب عليهم تخفيفاً عليهن. وعبادة الحج الاجتماعية معروضة عليهن كالرجال، وقد شرع لهن من الأمور الاجتماعية والأمور العامة الكثير(٥٥)، ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، أولئك يرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم﴾**(٥٦).

٣ - **الحرية**: ولها مجالاتها المتعددة، يأتي في مقدمتها: الحرية المدنية، ويقصد بالحرية المدنية الحالة التي تجعل الشخص أهلا لإجراء العقود، وتحمل الالتزامات، وتملك العقار والمنقول، والتصرف فيما يملك(٥٧).

وقد منح الإسلام هذا الحق جميع الأفراد ما عدا الصبي والمجنون والسفيه.

ولا يفرق الإسلام بين الناس في هذا الحق تبعاً لاختلاف شعوبهم أو طبقاتهم أو تفاوتهم في الأحساب والأنساب، بل جعلهم كلهم في ذلك سواسية كأسنان المشط، كما يعبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه في حديثه الشريف.

---

(٥٣) النحل/ ٩٧.

(٥٤) آل عمران/ ١٩٥.

(٥٥) محمد رشيد رضا: **حقوق النساء في الإسلام**. المكتب الإسلامي، بيروت: دمشق، د.ت، ص١١.

(٥٦) التوبة/ ٧١.

(٥٧) علي عبدالواحد وافي: **الحرية في الإسلام**. دار المعارف، القاهرة، سلسلة إقرأ (٣٠٤)، سبتمبر ١٩٨٠، ص٩.

ويسوي الإسلام كذلك، في هذا الحق بين المسلمين وغير المسلمين، فيقرر أن الذين في بلد إسلامي أو في بلد خاضع للمسلمين لهم ما للمسلمين من حقوق مدنية وتطبق عليهم القوانين نفسها التي تطبق على هؤلاء، إلا ما تعلق منها بشئون دينهم فتحترم فيه عقائدهم، وفي هذا يقول ﷺ: «من ظلم معاهداً، أو انتقض حقه فأنا خصمه يوم القيامة»(٥٨).

وسوى الإسلام كذلك في الحقوق المدنية بمختلف أنواعها بين الرجل والمرأة، لا فرق في ذلك بين أن تكون المرأة متزوجة أو غير متزوجة، بل تظل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم أسرتها، وبكامل حقوقها المدنية، وبأهليتها في تحمل الالتزامات وإجراء مختلف العقود من بيع وشراء وهبة ورهن ووصية، وما إلى ذلك، ومحتفظة بحقها في التملك مستقلاً عن غيرها(٥٩).

وهناك حرية العقيدة، وهي الحرية التي تقتضي أن يكون لكل إنسان اختيار كامل للعقيدة التي يعتنقها ويؤمن بها، من غير ضغط ولا إكراه خارجي. وفي هذا الجانب من الحرية يقرر القرآن الكريم - في سور متعددة مكية ومدنية، وفي آيات كثيرة - أن كل إنسان حر في دينه وعقيدته، لا سلطان لأحد عليه فيها، فالعقيدة اقتناع داخلي وعملي باطني، لا يجدي فيها الإكراه ولا يحقق غرضاً صحيحاً(٦٠).

ولذلك ينفي القرآن الكريم الإكراه في الدين بلا النافية للجنس، نفياً شاملاً مستغرقاً لجميع أنواعه وصوره وأفراده، ويترتب على ذلك، النهي عنه وترتيب العقاب عليه، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿**لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم**﴾(٦١).

---

(٥٨) عن المرجع السابق، ص١٠.
(٥٩) المرجع السابق، ص١١.
(٦٠) زكريا البري، مرجع سابق، ص١٠٩.
(٦١) البقرة/ ٢٥٦.

ويبين القرآن أن مشيئة الله لم تتعلق بقهر الناس وقسرهم على الإيمان، بل بنى الأمر على الرضا والاختيار، ثم يستنكر هذا القهر فيقول سبحانه وتعالى: ﴿**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾(٦٢).

ولا يختلف موقف الإسلام حيال النوع الثالث من الحرية وهو الحرية الفكرية عن موقفه حيال النوعية السابقة، فقد منح الإسلام كل فرد الحق في إبداء رأيه عن أي طريق شاء، وجعل من أظهر صفات المؤمنين أنهم يجهرون بما يرون، ولا تأخذهم في الحق لومة لائم. وعلى هذا المبدأ الجليل سار الرسول عليه الصلاة والسلام، وسار الخلفاء الراشدون من بعده، فقد كانت حرية الرأي في عهدهم جميعاً مكفولة ومحوطة بسياج من القدسية، وفي ذلك يقول أبو بكر الصديق في خطبته عقب أن بايعه المسلمون خليفة لرسول الله: «يا أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم» ويقول في خطبة أخرى: «إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فاتبعوني وإن زغت فقوموني». ويقول عمر رضي الله عنه: «إلا أن رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوموني»، فقام رجل فقال: «إن رأينا فيك اعوجاجاً قومناك بالسيف»، فاغتبط عمر بما قاله الرجل وحمد الله أن بلغ المسلمون هذا الحد من اليقظة والوعي(٦٣).

وتوكيداً لهذا المبدأ الجليل، أمر الله نبيه عليه السلام - مع أنه الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى - ألا يستبد بشئون المسلمين وأن يشاورهم في الأمر، فقال تعالى: ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر**﴾(٦٤). وكانت قاعدته ﷺ في المشورة أن يأخذ بما أجمع عليه أصحابه ولو كان مخالفاً

---

(٦٢) يونس/ ٩٩.
(٦٣) علي عبدالواحد وافي: **حقوق الإنسان في الإسلام**. وزارة الأوقاف، القاهرة، د.ت، ص١٢٨.
(٦٤) آل عمران/ ١٥٩.

لرأيه، فإن اختلفت آراؤهم أخذ بما استقرت عليه أغلبيتهم، كما حدث عندما استشار أصحابه في شأن بعض الأسرى: أيقتلون أم يطلق سراحهم في مقابل فداء يدفعونه؟(٦٥).

٤- **حق العمل**: كفل الإسلام لجميع أفراد الناس الحق في أن يسعوا في تحصيل الرزق، ما دام هذا التحصيل بالوسائل المشروعة التي لا تتنافى مع قواعد الأخلاق والمثل العليا التي أرستها شريعة الإسلام، وأعطى الإسلام لكل فرد أيضا الحق في الراحة بعد عمله، لا يجوز لأي سلطة أن تمنعه من حقه في هذين الأمرين(٦٦).

ومن يقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿**قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾(٦٧).

من يقرأ هذه الآيات الكريمات يرى أن الله سبحانه وتعالى يمتن على عباده بأن قسم الزمن على هذه الأرض بين ظلام الليل وضياء النهار، وفي هذا إرشاد للخلق بأن هناك وقتا للعمل وهو النهار وآخر للراحة وهو الليل.

وقد حث الإسلام الناس على أن يسعوا في سبيل تحصيل الرزق، فقال تعالى ممناً على عباده بأن هيأ لهم الأرض: ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾(٦٨).

---

(٦٥) علي عبدالواحد: حقوق الإنسان في الإسلام، ص١٢٩.

(٦٦) محمد رأفت عثمان: **المساواة في الحقوق والواجبات**. ملحق مجلة الأزهر، القاهرة، ربيع الأول، سنة ١٣٩٤، ص٢٠.

(٦٧) القصص/ ٧١-٧٣.

(٦٨) تبارك/ ١٥.

ويأمر الله تبارك وتعالى بالسعي في الرزق بعد أداء فريضة صلاة الجمعة، فقال سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلك خير لكم إن كنتم لا تعلمون، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾(٦٩).

بل نجد ان الله سبحانه يجيز لمن ذهب لأداء فريضة الحج أن يزاول أعمال التجارة في موسم الحج، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كانت عكاظ، ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية فتأثموا في الإسلام أن يتجروا فيها، فنزلت الآية: ﴿**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم**﴾، يعني في مواسم الحج(٧٠).

ووصف الله الأرض بأنها مهد للإنسان تارة، وبأنه مستعمر فيها، أي من حكمة وجوده تعميرها، كل ذلك يشرح الصلة الوثقة بين الإنسان وبين العمل في هذه الحياة، عملاً متصلاً مثمراً يتجه إليه بقلبه ولبه جميعاً، لا ليتقنه فحسب، بل ليتعرف على عظمة الخالق من خلال ما يعالج من شئون(٧١): ﴿**والله جعل لكم مما خلق ظلالاً، وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون**﴾(٧٢).

فمن كرس حياته للحق والخير فعمله عبادة، وكل قطرة عرق تبذل فيه فهي آية جهاد توضع في موازين المرء مع صلاته وزكاته. وقد نبّه النبي ﷺ إلى أن العمل للدنيا من الدين، وأنه شيمة الأنبياء والمرسلين سواء أكان هذا العمل زراعة أم صناعة أم تجارة أم وظيفة.

لكن لا يجوز أن يكون حب الحياة باباً إلى طلبها بوسائل رديئة، فإن

---

(٦٩) الجمعة/ ٩-١٠.
(٧٠) محمد رأفت عثمان، مرجع سابق، ص٢٣.
(٧١) محمد الغزالي: حقوق الإنسان، ص١٧٣.
(٧٢) النحل/ ٨١.

العمل الذي أمر به الله محكوم بإطار سميك من أخلاق العفة والصدق والعدالة والرحمة. وعندما يسّر الله لعباده خيرات هذه الأرض نبههم إلى أن ذلك لا يجوز أن يعدو الحلال الطيب، فليس الإنسان وحشاً منطلقاً في برية يلتهم ما وقع في براثنه، كلا، إنه إنسان محاسب على سلوكه، مسئول عن نيته ووسيلته وغايته: **﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين﴾**(٧٣).

وإننا في نهاية هذا الجزء يحق لنا أن نتساءل عما إذا كانت هناك صلة بين هذه الحقوق وبين حق التعليم الذي هو قضيتنا الرئيسية؟

إننا نؤكد هنا أن هذه النماذج من الحقوق اخترناها من بين حقوق عدة وفي ذهننا حق التعليم، فهي إن شئنا التشبيه، نستطيع أن نقول أنها بمثابة «البنية الأساسية» التي يصعب على الإنسان أن يستثمر حقه في التعليم إذا انتقص مثل هذه الحقوق:

- وأول هذه الحقوق، حق الحياة الذي يتعلق بوجود الإنسان نفسه وما يتصل بهذا الحق من «أمن»، فالتعليم يرتبط بهذا الحق ارتباط تلازم في الوجود، فمن البديهي أن الإنسان إذا فقد الحياة، فقد كل شيء، ومن ضمن ذلك: التعليم، فإذا نال حق الحياة، ثم ظل مهدداً في وجوده، لا يأمن على نفسه، انصرف ذهنه عن التعليم لأن الحاجة إلى الأمن تفوق في قوتها وشدة إلحاحها الحاجة إلى التعليم حيث أنها ترتبط بحق الحياة.
- والمساواة ترتبط بتلك القضية الكبرى في الفكر التربوي ألا وهي «ديمقراطية التعليم» والتي تعني هنا إتاحة الفرصة لكل إنسان للتمتع بحق التعليم دون أن يحول بينه وبين ذلك عائق يرجع إلى الجنس أو النوع أو الموطن أو اللون أو المال أو الدين أو المذهب، وهكذا فإن إلحاح الإسلام على ضرورة المساواة بالصورة التي أشرنا إلى أمثلة لها يوفر للتعليم مناخاً صحياً سليماً كي يكون أداة عدل بين الناس وطاقة نمو وتطور.

---

(٧٣) البقرة/ ١٦٨.

- والحرية هي الغذاء الذي يتغذى عليه تفكير الإنسان، فلا ينمو إلا به، والتفكير هو وظيفة العقل الذي هو وسيلة التعليم وموضوعه، بل إن انعدام الحرية إن أنتج لنا بشراً فإنما ينتج نوعية تهبط بالمجتمع إلى درك أسفل، لأنها عندئذ سوف تكون نوعية تألف الخنوع والاستكانة والعبودية والتبعية، وبئسها تربية وبئسه تعليم إذا أنتج مثل هذه النوعية.
- أما العمل فهو بالنسبة للتعليم وسيلة وثمرة، فمن المعروف أن التعلم بالعمل هو أكثر طرق التعليم فعالية، والإنسان لا يتعلم لمجرد الاستمتاع الشخصي البحت، وإنما ليستثمر ما تعلمه في الكد والكدح، كداً وكدحاً ينبني على معرفة وعلم فيعين الإنسان على حسن تعمير الأرض.

حق التعليم

التعليم وحقوق الإنسان:

أصبح اليوم هناك ما يشبه الإجماع على «ضرورة العلم» لأية نهضة حديثة تنشدها أمة من الأمم، خاصة إذا كانت هذه الأمة تواجه تحديات كثيرة وقاسية يفرضها عليها أعداء كثيرون، كما هو الحال في أمتنا العربية الإسلامية. ومما لا شك فيه أن «الفتوحات العلمية» التي أنجزتها حضارتنا العربية الإسلامية في عصرها الذهبي، قد لعبت الدور المتميز في الازدهار الذي حققته هذه الحضارة، وكذلك هناك اتفاق على أن «الإنجازات العلمية» المتميزة التي صنعتها هذه الحضارة، في مختلف فروع المعرفة العلمية - بمعناها الرحب - هي التي وسعت أفق هذه الحضارة، وأعطتها الصبغة المتفتحة التي تميزت بها، وجعلتها منارة العالم لعدة قرون. تلك حقائق امتلأت بها الأسفار التي خصصها أصحابها لتاريخ العلوم، عربا ومسلمين كانوا أو من المستشرقين(٧٤).

(٧٤) محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان، ص٦٩.

فما مغزى ذلك بالنسبة لحقوق الإنسان؟ وما هذه العلاقة التي يمكن أن تربط بين مدى تقدم التعليم في أمة وبين مكانة حقوق الإنسان فيها؟

إن هذا يدفعنا إلى ضرورة بيان أهمية التعليم بالنسبة لحقوق الإنسان:[٧٥]

١ - إن من وظائف التعليم الأساسية تسليح المواطنين بالمعرفة، وتزويدهم بالمهارات التي يحتاجونها في صنع قراراتهم، ومن اتخاذ المواقف الإيجابية دائماً، وعلى ذلك فواجب التعليم أن يزود الطلاب بقاعدة معرفية عريضة وصحيحة عن حقوق الإنسان، وطبيعتها، والأصول التي تتبناها الإنسانية لحمايتها، خاصة وأن عدداً من المنظمات الإقليمية والدولية المهتمة بالدفاع عن حقوق الإنسان قد نبهت إلى أهمية المعرفة في مواجهة ما تواجهه حقوق الإنسان من تحديات ودور هذه المعرفة في دعم حركة حقوق الإنسان وزيادة الوعي بمبادئها.

٢ - إن شيوع التعليم بين الناس وتأكيد برامج التعليم ومناشطه على مبادئ حقوق الإنسان وأهميتها ووجوب صيانتها، وضرورة التصدي للانتهاكات المتعلقة بها من شأنه أن يساعد على تكوين مجتمع أكثر إنسانية وأكثر عدلاً، إذ سوف يؤدي إلى إبراز قيمة الإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض وباعتبار أن حماية حقوق الإنسان ملمح رئيسي لهذا العصر، ومن المؤكد أن زيادة مشاركة الإنسان في صنع هذا المجتمع مرتبطة بزيادة وعيه ومعرفته بهذه الحقوق، وبغير هذا الوعي وتلك المعرفة - وهي مهنة التعليم - تصبح مشاركة الإنسان في صياغة المجتمع الأكثر إنسانية وعدلاً أمراً مستحيلاً[٧٦].

٣ - يولد الإنسان طفلاً ضعيفاً بدناً، قاصراً فكراً، ثم يأخذ على مر الزمن طريقه إلى النماء البدني والارتقاء الفكري حتى يبلغ أشده. وهو لا يكبر

(٧٥) حسن عبدالعال: التربية وحقوق الإنسان في الوطن العربي، مرجع سابق، ١٧٨.
(٧٦) المرجع السابق، ص١٧١.

جسما وعقلاً من تلقاء نفسه، بل يتزود بمقادير منتظمة من الأغذية تكفل لعظامه أن تمتد ولعضلاته أن تكتنز(٧٧).

وهو محتاج إلى أقساط منتظمة كذلك من المعرفة حتى يتفتح ذهنه، وتتسع مداركه، ويبصر حقيقة ما يحيط به من الأشخاص والأشياء، ويعي ما يطلب منه وما يجب عليه. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم من أن الإنسان عندما يولد يجيء إلى هذه الدنيا وكأنه صفحة بيضاء خالي الوفاض من المعرفة الأساسية التي تعينه على حسن التعامل مع عناصر البيئة التي تحيط به، بشرية كانت أم مادية، فيستعين بما وهب من وسائل الإدراك كي يكتسب هذه المعرفة بالتعليم، يقول عز وجل: ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾(٧٨).

الاحتفاء الإسلامي بالتعلم والتعليم:

ومن هنا كان علينا أن نبرز هنا موقف «الدين الإسلامي» من التعليم وكيف كان هذا «الموقف الثابت - والمبدئي» هو العامل الأول والفاعل الأساسي وراء الانتقال بجماعة العربية من «الجاهلية» وبداوتها إلى «المعرفة» وحضارتها، لأن هذا الموقف، بسبب من «ثباته» وما له من «قداسة» لا تزال له الصلاحية، اليوم وغداً، لينتقل بالأمة من «التخلف» إلى «التقدم»، ومن «الركود» إلى «النهضة»، ومن «الكسل العقلي» إلى «التوقد الفكري»، ومن «الخرافة الساذجة» إلى «الروح العلمية» التي طبعت فكر المسلمين عندما وعوا خصائص هذا الدين الحنيف(٧٩). إن الإشارة إلى موقف الإسلام من التعليم، وهو الموقف الذي رآه فيه «ضرورة إنسانية ودينية واجبة» هو إبراز للركن الأساسي، والعمود الفقري لحقوق الإنسان.

---

(٧٧) محمد الغزالي: حقوق الإنسان، ص١٩٧.
(٧٨) النحل/ ٧٨.
(٧٩) محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان، ص٧٠.

ومن هنا، فلا بد أن نعي دلالة الاستهلال الذي بدأ به الوحي رسالة الإسلام إلى رسوله محمد بن عبدالله ﷺ، لقد كان استهلالا يعلن ميلاد طور جديد للإنسانية، بلغت فيه سن الرشد والنضج، فكانت كلمته الأولى - في الأمة الأمية، وإلى النبي الأمي، وبصيغة الأمر والوجوب هي: (اقرأ). وحتى يوضع هذا «التكليف - الواجب» الذي يبدو غريباً، بل ومستحيلاً على التحقيق - حتى يوضع في الإطار الذي يؤكد إمكانه، اقترن الأمر (اقرأ) بالحديث عن قدرة الشارع سبحانه وتعالى، وعن نعمه وآلائه، ومنها العلم، والتعليم ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم**﴾[٨٠]. إنه تكليف واجب، بدأت به آيات الكتاب، الذي سمي - لحكمة لا تخفى - بـ «القرآن»، وصاحب هذا التكليف، سبحانه، ﴿**الرحمن علم القرآن. خلق الإنسان علمه البيان**﴾[٨١]، والذي إذا أقسم، سبحانه، كان قسمه: ﴿**ن. والقلم وما يسطرون**﴾[٨٢].

وتتجمع نصوص كثيرة، من سنة الرسول العظيم لتشرح وتؤكد وتفصل ما جاء بالقرآن الكريم توجيهاً عاماً وتكليفاً مجملاً.

فمما رواه مسلم عن أبي هريرة: «ومن سلك طريقاً يلتمس به علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة».

ولما خطب صلوات الله عليه في حجة الوداع، قال فيما رواه البخاري عن أبي بكر: «ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه»، أي أكثر فهما واستيعاباً لمعاني ما يبلغه من الذي سمعه مباشرة من الرسول ﷺ[٨٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا

---

(٨٠) العلق/ ١-٥.
(٨١) الرحمة/ ١-٤.
(٨٢) القلم/ ١.
(٨٣) عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، ط١، ص٢٨٤.

في اثنتين رجل أتاه الله مالاً فسلط على هلكته في الحق ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»(٨٤).

وعن أمامة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض، حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس بالخير»(٨٥).

وحسب العلماء تقديراً أن الله تعالى قرنهم بالملائكة في الإقرار بوحدانيته وعدله، لأنهم هم الذين يفكرون فيهديهم تفكيرهم إلى الحق، وهم الذين يستطيعون أن يثبتوا بالأدلة ما يجب لله تعالى من صفات الكمال، وما يتنزه عنه من صفات النقص، ويؤمنون بأنه العزيز الذي لا يغالبه أحد، الحكيم الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه ودبره فأحكم تدبيره: قال تعالى: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم، قائماً بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾(٨٦).

والعلماء هم أولو المعرفة والتجربة والخبرة، وهم القادرون على الفهم الرشيد والتوجيه الصحيح، وهم أهل المشورة والفتيا(٨٧): قال تعالى: ﴿**مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون. إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء، وهو العزيز الحكيم، وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾(٨٨).

---

(٨٤) صحيح البخاري، كتاب العلم، جـ١، ص٢٨.
(٨٥) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.
(٨٦) آل عمران/ ١٨.
(٨٧) أحمد محمد الحوفي: **القرآن والتفكير**. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سلسلة دراسات في الإسلام، العدد (١٧٠) جمادى الأولى ١٣٩٥/ مايو ١٩٧٥، ص٢٤.
(٨٨) العنكبوت/ ٤١-٤٣.

وكل هذا يفسره معرفة أن دعوة الإسلام لنظام الحياة الإنسانية قد قامت على أساسين كانا هما دعامة النجاح:

أولهما: إنها دعوة متفرعة عن العقيدة الدينية.

ثانيهما: أنها دعوة متفرعة عن فريضة العلم، كل العلم، على كل مسلم ومسلمة، وذلك للنظر الواجب على كل مسلم بنص القرآن الكريم فيما قد حوته السموات والأرض عملاً بقوله تعالى: ﴿**قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات**﴾[٨٩]، فالدعوة الإسلامية لإصلاح نظام البشر متفرعة عن إيمان المسلم أولا، ثم أنها متفرعة ثانيا عن فريضة الإسلام للعلم على كل مسلم ومسلمة[٩٠]. ولما كانت دعوة الإسلام فاتحة لعهد الرشد البشري، فإن اهتمامها بالعلم كان اهتماماً بالغاً وكبيراً.

وقد تجاوز الدين في مفهوم القرآن صلات الإنسان مع قوى الغيب العلوية إلى حدود صلات الإنسان مع الإنسان، وفق ذلك، فقد حمل المخاطبين به على الاحتكام في كل الصلات مع الله والإنسان إلى: العلم والعقل والفكر، فقد قال الله تعالى تارة: ﴿**ونفصل الآيات لقوم يعلمون**﴾، وتارة ﴿**لقوم يعقلون**﴾، وتارة ﴿**لقوم يتفكرون**﴾.

والقرآن يعتبر العلم عنصراً من عناصر تكوين الإنسان وسراً من أسرار تكريمه، ومن أجله أسجد الله الملائكة لآدم، لقوله تعالى: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم، قال: ألم أقل لكم أني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾[٩١].

---

(٨٩) يونس/ ١٠١.

(٩٠) محمد معروف الدواليبي: **موقف الإسلام من العلم**. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠، ص٢١.

(٩١) البقرة/ ٣١-٣٣.

وفي آيات متعددة من القرآن الكريم نجد أن مهمة الرسول ﷺ كانت مهمة تربوية بالدرجة الأولى، وأنه هو نفسه كان المعلم الأول في الإسلام، يقول عز من قال: ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾(٩٢). وقال أيضاً: ﴿**لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾(٩٣). وقال أيضا: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾(٩٤).

التعليم.. مسئولية مَن؟

في التصور الإسلامي، نجد التعليم مسئولية أولى الأمر المتمثلة في «سلطة الدولة»، كما أنها مسئولية «مجموع الأمة»، وكذلك فهي بالدرجة الأولى مسئولية كل فرد!

ومن منطلق تقسيمات علماء الإسلام القدامى يمكن القول بأن المسئولية التعليمية للدولة الإسلامية تثار عند ثلاث مستويات(٩٥):

الأول: الإلمام بأمور الدين الأساسية وشئون الدنيا الضرورية، والتعليم عند هذا المستوى واجب عيني، وعلى الفرد أن يسعى إليه بدليل قوله ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، كما أنه واجب على الدولة أن تهيئه للطالبين أو المحتاجين إليه باعتبار أن ذلك جزء من الوظيفة التربوية والتثقيفية التي تضطلع بها الدول الإسلامية.

---

(٩٢) البقرة/ ١٥١.
(٩٣) آل عمران/ ١٦٤.
(٩٤) الجمعة/ ٢.
(٩٥) علي حسن القريشي: ص١٤٨.

الثاني: العلم الديني على المستوى التخصصي الذي ينتج العالم المثقف أو المجتهد الذي يكون بمقدوره بيان الأحكام وإصدار الفتاوى واستنباط الحكم الشرعي في النوازل المستجدة، وهو عند هذا المستوى واجب كفائي، يكفي أن يتفرغ إليه نفر من المسملين: ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين**﴾(٩٦).

الثالث: العلم الدنيوي، فالرسول ﷺ في حثه على طلب العلم لم يقصر حثه على طلب العلم الشرعي، بل دعا إلى كل علم ينفع المسلمين. والعلوم المادية والطبيعية هي مما يتصل بضروريات الحياة ومتطلباتها وفائدة المسلمين ونفعهم وتقدمهم، واعتبر العلماء تعليم الطب والصناعات والفنون المهنية الضرورية واجبا كفائيا، مما يعني أن التعليم عند هذا المستوى تتحمل الدولة مسئولية تهيئته للمهيئين إليه أو الراغبين فيه، خاصة في ظل ظروف التعليم المعاصر التي لا يمكن للأفراد خلالها تعلم الطب أو الهندسة مثلاً دون المعاهد والأجهزة والمرافق ذات التكاليف العالية(٩٧).

ويتصل بهذا، التساؤل عن مدى «وجوبية» التعليم، فهل كانت النصوص الدينية التي تشير إلى ضرورة أن يسعى المسلم إلى طلب العلم تفيد (الوجوب) و(الإلزام) أم أنها كانت على سبيل التحسين والنصح؟

إن أبرز من آثار هذه القضية هو الفقيه المغربي الشهير «القابسي»، فمن رأيه أن معرفة العبادات واجبة بنص القرآن، ومعرفة القرآن واجبة أيضا لضرورتها في الصلاة وأن الوالد مكلف تعليم ابنه القرآن والصلاة لأن حكم الولد في الدين حكم أبيه، فإذا لم يتيسر للوالد أن يعلم أبناءه بنفسه فعليه أن يرسلهم إلى الكتاب لتلقي العلم بالأجر، فإذا لم يكن الوالد قادراً على نفقة

(٩٦) التوبة/ ١٢٢.
(٩٧) علي حسن القريشي: ص١٤٩.

التعليم، فأقرباؤه مكلفون بذلك، فإذا عجز أهله عن نفقة التعليم، فالمحسنون مرغبون في ذلك، أو معلم الكتاب يعلم الفقير احتسابا أو من بيت المال(٩٨).

فإذا كنا نرتب على القول بـ «إلزامية التعليم» أن تلقى مسئوليته على عاتق الدولة، فإن القابسي لا يشير إلى ذلك إلا من طرف خفي، فما زال الظاهر والواضح، حتى مع القول بوجوب التعليم، أن يكون ذلك مسئولية «خاصة» أو مسئولية شعبية، أما إشارته الخفية إلى مسئولية الدولة فهي أن يعلم معلم الكتّاب الفقير العاجز عن تحمل نفقات التعليم «من بيت المال»(٩٩)!

وإذا كان من مستتبعات الإلزام أن يعاقب المتخلفون عن التعليم، إلا أن القابسي يعتمد على فكرة العقاب الديني. أشار إلى ذلك عندما سأله سائل عن حالة الوالد الذي يمتنع عن إرسال ابنه إلى الكتاب يتلقى الدين والعلم، هل للإمام أن يجبره؟ فأجاب القابسي أن ليس للإمام أن يجبره وإنما يوعظ ويؤثم. وإذن فقد عرضت المسألة على بساط البحث، وأوشكت أن تتم أركان الإلزام من ناحية الدولة، إلا أن «الأهواني» يذهب إلى أن هذا لم يتم، مرجعاً ذلك إلى ما سماه «تردد بعض الفقهاء في الحكم»(١٠٠). لكن الحق الذي يجب أن يقال هو أن الإسلام أوجب - كما رأينا - طلب العلم، وما لا يتم العلم إلا به (وهو التعلم والتعليم) فهو واجب كوجوب العلم نفسه.

ومع ذلك فالأهواني يشير إلى عكس ما نقول «ولم يرد في القرآن نص على وجوب التعليم، ولا يوجب الحديث مثل ذلك، ولم يعهد عن الصحابة والتابعين أنهم أوجبوا على الناس تعليم أبنائهم وإرغامهم على إرسالهم إلى الكتاتيب، أو استحضار المعلمين لهم. والإجماع من الأصول التي يرجع إليها

---

(٩٨) أحمد فؤاد الأهواني: **التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي**. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٥، ص٩١.

(٩٩) سعيد إسماعيل علي: **الدولة والتعليم**، في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: **الفكر التربوي العربي الإسلامي**. تونس، ١٩٨٧، ص٧٧٢.

(١٠٠) التربية في الإسلام، ص٩٣.

الفقهاء في احكامهم. وليس غريباً أن نجد القرآن خلواً من نص على التعليم، فلم يكن في العهد الذي نزل فيه القرآن كتاتيب، إلى جانب أن التعليم في الكتاتيب من الأمور الدنيوية البحتة التي لا يتعرض لأمثالها القرآن وإنما يتركها لتصرف العباد»(١٠١).

ولكن، إذا كان من الثابت أن القرآن والحديث قد أمر المسلمين بالعلم، فكيف يمكن أن يتم ذلك إلا بالتعليم؟ صحيح أننا لم نجد من الصحابة من يرغم ابنه على ذلك، ولكن التعلم والتعليم في صدر الإسلام، لم يكن من مقوماته معرفة القراءة والكتابة لارتباط ذلك بـ «التدوين» وهو أمر لم يكن شائعاً إلا بعد فترة غير قصيرة، لقد كان التعلم والتعليم يعتمد على الحفظ والاستظهار كعادة العرب عدة قرون، والقرآن والحديث كلاهما حفظهما كثيرون من الصحابة دون قراءة أو كتابة، ولا ينفي ذلك اتصافه بأنه عملية تعلم وتعليم(١٠٢).

ولا ندري لماذا الربط بين الأمر بوجوب التعليم في القرآن وبين الكتاتيب؟ إذ ليس معنى خلو القرآن والسنة من ذكر للكتاتيب دليل على عدم أمرهما بالتعليم وجوبا، فالكتاب مجرد مكان تتم فيه عملية تعلم القراءة والكتابة، ومن الممكن أن يتم ذلك في أي مكان، هذا فضلاً عن عدم صحة ما ذهب إليه الأهواني من عدم وجود كتاتيب عند نزول القرآن، فقد وجد بعضها وإن كان قليلاً، وكذلك وإن كان قاصراً على تعلم القراءة والكتابة لا على تعلم القرآن كما شاع عنه بعد ذلك. وليس هنا مكان مناقشة ذلك(١٠٣).

آفاق رحبة للتعليم:

إن الإيمان ليس تخمينات عقل ضرير محبوس في قفص من الأوهام الذاتية. كلا. إنه أثر اشتباك الإنسان مع الحياة والأحياء، ونظراته الدائبة الفاحصة لإدراك

---

(١٠١) المرجع السابق، ص٩١.
(١٠٢) سعيد إسماعيل علي: الدولة والتعليم، ص٧٦٨.
(١٠٣) عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية، دار القلم، ط١، د.ت، ص٨٥.

كل شيء، والإحاطة بما وراء كل شيء، ومن هنا كان العلم والدين متلازمين، بل إن أحدهما - في منطق القرآن الكريم - سبب ونتيجة للآخر.

والمجتمع الذي يلده الإسلام، أو يولد فيه الإسلام، هو المجتمع الذي يسوده جو صحو من التعليم الذي يقوم على دراسات متنوعة الآفاق.. أصيلة، حرة ، ينمو فيها العقل الإنساني وتتوطد فيها أواصر الصداقة بين الإنسان وبين ما في العالم من عناصر وقوانين، وذلك وحده هو الطريق الذي حدده الإسلام للتعرف على الله، ثم اليقين بما جاء به من عنده على لسان رسله الأكرمين(١٠٤). وإذا كان سعي التعليم إنما هو معرفة الكون والحياة، فإن هذه المعرفة أعظم من معرفة خالق الكون، والحياة، ورب كل شيء.. رب العالمين، فمن عرف الحياة وتأدى منها إلى الإيمان بالخالق الكبير فهو إنسان، أما من لم يعرف هذا العالم، أو عرفه بطريقة مقلوبة لا تصله بالله، فهو حيوان، أو شيطان(١٠٥): ﴿**إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون**﴾(١٠٦).

والذي جعل التعليم الإسلامي رحب الآفاق متنوع المجالات، هو مفهوم الإسلام للعلم، فالعلم في القرآن الكريم يعني:

أولا - «جملة المعارف التي يدركها الإنسان بالنظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق من شيء، ويشمل الخلق هنا، كل موجود في هذا الكون ذي حياة أو غير ذي حياة»(١٠٧)، وهذا المعنى يفهم من هذه الآيات العديدة التي تحض الإنسان على التفكير والدراسة لما في الكون من مظاهر مختلفة، مثال ذلك:

- ﴿**أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض**﴾(١٠٨). (١٠٩)

---

(١٠٤) محمد الغزالي: حقوق الإنسان، ص٢٠٠.
(١٠٥) المرجع السابق، ص٢٠١.
(١٠٦) الأنفال/ ٥٥.
(١٠٧) عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية، ص٨٥.
(١٠٨) سبأ/ ٩.
(١٠٩) الذاريات/ ٢٠-٢١.

- ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق، وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾(١١٠).
- ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت**﴾(١١١).
- ﴿**إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتهاو وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾(١١٢).

ثانياً: «التبصر في أي أمر من الأمور والإتيان به على الوجه الأكمل»(١١٣)، أو بمعنى آخر هو طريقة تفكير ومنهج بحث، وهذا يفهم من قوله تعالى: ﴿**هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾(١١٤)؟ وهو استفهام إنكاري، معناه أنه لا يستوي عالم وجاهل، وقال تعالى: ﴿**هل تستوي الظلمات والنور**﴾؟ أي أن الظلمة لا تساوي النور، فبين الله لنا أن الظلمة مثال لحال من لا يعلم وأن النور مثال لحال من يعلم، فتبين من ذلك أن عدم العلم يشبه الظلام، ونحن نعلم ما يكون من الإنسان إذا اشتد به الظلام وهو سائر في طريق يقصد غاية معلومة، فإن الظلام يعمي عليه الطريق، وربما سلك طريقاً يبعده عن مقصده وقد يصادف هوة فيسقط فيها فيهلك قبل الوصول إلى مقصده(١١٥).

وهذه حال الجاهل بوسائل أي غاية من الغايات التي يقصدها الإنسان في حياته، فكل من سعى إلى تحقيق هدف بدون علم، لا يحقق غايته، فنفهم من هذه الآية الكريمة، أن الله تعالى وضَّح لنا أن العلم هو للإنسان بمثابة النور، لا بمعنى

---

(١١٠) فصلت/ ٥٣.
(١١١) الغاشية/ ١٧-٢٠.
(١١٢) البقرة/ ١٦٤.
(١١٣) محمد عبده: دروس من القرآن الكريم، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال (٩٦)، القاهرة، مارس ١٩٥٩، ص١٢٠.
(١١٤) الزمر/ ٩.
(١١٥) سعيد إسماعيل علي: ديمقراطية التربية الإسلامية، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٢، ص٧٥.

أن العلم سراج أو مصباح، وإنما ذلك مثل لحال من يعلم الطريق الذي يصل من خلاله إلى مطلوبه، والوسائل المؤدية إليه، فإن حاله يشبه حال من يمشي وبين يديه نور يبين له السبيل، ويظهره على ما قد يكون هناك من الموانع فيتجنبها أو يزيلها حتى يصل إلى مطلوبه، ظافراً بعاقبته وسلامته، لأن الآيات والأعلام المنصوبة لا يراها الغارق في الظلام، وإنما يراها المبصر بالضياء والنور(١١٦).

وحرص القرآن الكريم على أن ينبه الإنسان إلى أن «يعلم» كل ما تستطيع وسائل الإدراك التي زوده الله بها أن تصل إليه، والله عز وجل إذ يشير إلى «أمثلة» من مظاهر من المجالات الكونية التي يجب أن يتجه إليها الإنسان، فلم يكن المراد هو مجرد النظر البصري العاجل، ولا اللفتة العفوية، لأن التدبر والتأمل والتعقل وغير هذا وذاك مما هو ملازم للنظر في مظاهر الكون، لا يأتي إلا ببحث ودرس وتعلم. ولما كان المسلم مطالباً كذلك بأن ينقل ما تعلمه إلى غيره دل هذا على أن الدعوة إلى النظر في مظاهر الكون إنما هي دعوة إلى تعلم وتعليم كل ما يمكن للإنسان أن يعلمه، ومن أمثلة ذلك:

١ - وصف الأجرام السماوية مما تناوله علم الفلك: ﴿**وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون**﴾(١١٧).

٢ - وصف الأرض وما فيها من جبال وأنهار وصحارى وسهول ووديان، مما تناولته علوم الجغرافيا وطبقات الأرض: ﴿**ألم نجعل الأرض مهاداً، والجبال أوتادا**﴾(١١٨).

---

(١١٦) محمد عبده: دروس من القرآن الكريم، ص١٢١.
(١١٧) يس/ ٣٧-٤٠.
(١١٨) النبأ: ٦، ٧.

﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾(١١٩).

٣ - وصف تكوين الإنسان العقلي والجثماني، مما تناولته علوم الطب وعلوم النفس: ﴿فلينظر الإنسان مما خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾(١٢٠)، ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾(١٢١)، ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾(١٢٢).

٤ - الصلات البشرية، مما تناولته علوم الاجتماع(١٢٣): ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾(١٢٤).

٥ - تكوين الحيوان مما تناوله علم الحيوان، وقد سمى الله بعض سور القرآن بأسماء بعض الحيوانات «البقرة»، «الأنعام»، أو الحشرات: «النمل»، «النحل»، وقال ضمن آيات كثيرة تشير إلى الحيوان: ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً، فهم لها مالكون، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، ولهم فيها منافع، ومشارب أفلا يشكرون﴾(١٢٥)، . . . إلخ.

---

(١١٩) ق٧.
(١٢٠) سورة الطارق/ ٥-٧.
(١٢١) الذاريات/ ٢١.
(١٢٢) الشمس/ ٧-١٠.
(١٢٣) علي عبدالعظيم: **فلسفة المعرفة في القرآن الكريم**. مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية، لعدد (٦٥) جمادة الأولى ١٣٩٣/ يونية ١٩٧٣، ص٦٠.
(١٢٤) الروم/ ٢١-٢٣.
(١٢٥) يس/ ٧١-٧٣.

طرق التعليم ووسائله:

ليست المسألة تقرير حق التعليم في الإسلام ولا مجرد توسيع أفاقه، وإنما هي كذلك بيان «وسائل» ممارسة هذا الحق، فالإنسان يتعلم بطرق مختلفة، وفي آيات القرآن الكريم نجده سبحانه وتعالى يشير إلى الإنسان بأن يستثمر ما استخدمه هو من طرق تعليم، فمثل هذه الطرق ذات فاعلية ملحوظة، كذلك فإن تنوعها يواجه ما بين بني البشر من فروق وتفاوتات في المدارك والاستعدادات والقدرات، وكل طريقة قد تناسب موقفاً، بينما قد تناسب أخرى غيره من المواقف، من هذه الطرق:

١ - التقليد: إذ يتعلم الإنسان كثيراً من سلوكه وعاداته في المرحلة المبكرة من حياته عن طريق التقليد لوالديه وإخوته، فهو، مثلاً يبدأ تعلمه للغة بمحاولة تقليد والديه وأخوته في النطق ببعض المقاطع الصوتية التي يكررونها أمامه عدة مرات، كما يبدأ تعلمه المشي بمحاولة تقليد والديه وأخوته[١٢٦]... وهكذا.

وقد ذكر القرآن مثالاً يبين كيف يتعلم الإنسان عن طريق التقليد، وذلك حينما قتل قابيل أخاه هابيل ولم يعرف كيف يتصرف في جثة أخيه فبعث الله غراباً له ينبش في الأرض ليدفن غراباً ميتاً، فتعلم منه قابيل كيف يواري جثة أخيه: ﴿**فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه، قال: يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخي فأصبح من النادمين**﴾[١٢٧].

٢ - التجربة العملية، إذ يتعلم الإنسان أيضا عن طريقة التجربة العملية في مواجهة مشكلات الحياة المختلفة ومحاولة حلها والتغلب عليها، فمن ذلك، سؤال إبراهيم عليه السلام الله عز وجل أن يريه «عمليا» كيف

---

(١٢٦) محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٧، ص١٤٩.
(١٢٧) المائدة/ ٣١.

يحيي الموتى. فإبراهيم نبي الله مصدق بطبيعة الحال ولكنه موقف تعليمي يشير للناس بأن ينبني الاعتقاد على «اليقين» وأن التجربة العملية سبيل هام للتعليم والتعلم: ﴿**وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال: أولم تؤمن؟ قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً، واعلم أن الله عزيز حكيم**﴾(١٢٨).

٣ - المحاولة والخطأ: ويقابل الإنسان دائما في حياته مواقف جديدة لم يتعلم من قبل كيف يستجيب لها أو كيف يتصرف فيها. ويتوافق الإنسان دائماً لمثل هذه المواقف الجديدة بأن يحاول أن يستجيب لها باستجابات مختلفة، فيخطئ في بعضها، وقد يصيب أحياناً. وهكذا يتعلم الإنسان دائماً، عن طريق ما يسميه علماء النفس المحدثون المحاولة والخطأ، استجابات جديدة للمواقف الجديدة، وحلولاً لما يقابله من مشكلات في حياته العملية(١٢٩).

وقد أشار إلى هذا السبيل إلى التعلم، من خلال الموقف التالي(١٣٠):

عن طلحة بن عبدالله رضي الله عنه قال: (مررت على رسول الله ﷺ بقوم على رؤوسهم النخل، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا: يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فيتلقح، فقال ﷺ: «ما أظن يغني ذلك شيئاً»، قال: فأخبروا بذلك فتركوه، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: «إن كان ينفعهم ذلك فيصنعوه فإني إنما ظننت ظنا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذب على الله عز وجل»، وفي رواية أخرى قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»، لأن القوم لما تركوا تلقيح النخل لم يثمر، فكان أن عادوا إليه مرة أخرى.

---

(١٢٨) البقرة/ ٢٦٠.

(١٢٩) محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، ص١٥١.

(١٣٠) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفضائل، جـ١٥، ص١١٦، ١١٧.

٤ - الاتعاظ بالقصة، فقد احتفى القرآن الكريم بقصص الرسل السابقين، وبقصص الأمم الخالية، وما أفاض الله من النعم على الذين اهتدوا واتبعوا ما دعاهم إليه أنبياؤهم، وما حاق بالذين عصوا وكذبوا رسلهم واستكبروا استكباراً، ليسلك الذين دعاهم محمد عليه الصلاة والسلام طريق الطائعين، فيسعدوا برضوان الله، وليتجنبوا سبيل العاصين فينجوا من سخطه وعقابه(١٣١)، ومن ذلك:

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾(١٣٢).

٥ - وفي القرآن الكريم ضروب من التمثيل والتصوير، يسوقها للتدليل على وحدانية الله وقدرته، ويوضح بها إمكان البعث ويكشف عن حقائق يجب ألا يشك في صدقها عاقل، ويبين ما غشاه الجهل والعناء، ويوردها للعظة والاعتبار، قال تعالى: **﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون﴾**(١٣٣).

وقال سبحانه: **﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾**(١٣٤).

وقال عز وجل: **﴿ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾**(١٣٥).

وكنموذج لاستخدام القرآن للتمثيل قوله عز وجل: **﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب، تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾**(١٣٦).

---

(١٣١) أحمد محمد الحوفي: القرآن والتفكير، ص٧٣.
(١٣٢) إبراهيم/ ٢٥.
(١٣٣) الأعراف/ ١٧٥-١٧٦.
(١٣٤) إبراهيم/ ٢٥.
(١٣٥) النور/ ٣٥.
(١٣٦) البقرة/ ٢٦٦.

ففي هذه الآية تمثيل حال من عمل أعمالاً طيبة لا يبغي بها وجه الله فصارت عاقبتها وبالاً عليه، بحال من يمتلك حديقة ذات خصب وماء جار وثمرات، وقد كبرت سنه، وله أبناء صغار ضعاف، فهو في أشد الحاجة إلى حديقته، ثم حاقت بالحديقة صاعقة أحرقتها(١٣٧).

٦ - الجدال بالتي هي أحسن، و«الحوار» والجدال بالتي هي أحسن وسيلة من وسائل الاقناع، والاقتناع هو الطريق إلى الفهم وإلى السلوك، وهو سبيل كذلك إلى التعريف بالخير والشر، والفضيلة والرذيلة.

وهو له شروط وقواعد وأصول يجب اتباعها، صيانة للجدال بالحق عن أن يتحول إلى مماراة بعيدة عن نشدان الحقيقة، أو إلى مشاحنات أنانية، ومشاتمات ومغالطات، ونحو ذلك مما يفسد الحوار والمناقشة ويهيج النفوس ويورث الضغائن ولا يوصل، غالباً، إلى حق(١٣٨).

والجدال في الأصل حوار كلامي يتفهم فيه كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف الآخر، ويعرض فيه كل طرف منهما أدلته التي رجحت لديه استمساكه بوجهة نظره، ثم يأخذ بتبصر الحقيقة من خلال الانتقادات التي يوجهها الطرف الآخر على أدلته، أو من خلال الأدلة التي ينير له بها بعض النقاط التي كانت غامضة عليه.

وقد أرشدنا القرآن الكريم بأهم قواعد الجدال وهي التقيد بالقول المهذب، فقال: ﴿**وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾(١٣٩)، وقال: ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن**﴾(١٤٠)، وفي الحديث الشريف: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»(١٤١).

---

(١٣٧) أحمد محمد الحوفي: القرآن والتفكير، ص٧٨.
(١٣٨) عبدالرحمن حبنكة، ص٣٦١.
(١٣٩) النحل/ ١٢٥.
(١٤٠) العنكبوت/ ٤٦.
(١٤١) عن عبدالرحمن حبنكة، ص٣٦٤.

٧ - المناقشة: فإذا كانت التربية الإسلامية قد عرفت «الحفظ»، فإنها قد عرفت كذلك «المناقشة»، والتي تعطي للمتعلم حق الفهم وإبداء الرأي ونقد الفكر، فكثيرا ما كانت تعقب الدروس التعليمية مناقشات قد تثار من قبل الشيخ أو من قبل تلاميذه بقصد الاستخدام واستجلاء المعاني المطروحة في الدرس، وشرح ما غمض منها وتفصيل أفكار متصلة بها، أو بقصد الوقوف على مدى فهم التلاميذ لما ألقاه الشيخ في دروسه، وسواء ألقاه بأسلوب التلقين والتلقي، أو الإملاء والاستملاء، أو القراءة والشرح.

وقد حث المربون تلاميذهم على الاستفهام، وألا يأخذوا ما يلقى إليهم مسلمات تامة لا تقبل التوضيح أو المناقشة. وفي الواقع كان التعلم الذاتي يعتمد كثيرا على أسلوب المناقشة حيث يصطاد بها المتعلم ما يرغب في إجابات مسائل يجهلها. قيل لابن عباس: «بم نلت هذا العلم؟ قال: بلسان سئول وقلب عقول». ولقد سأل أحدهم من كبار السن الخليفة المأمون: «أقبيح بي أن أستفهم؟ فأجاب: بل قبيح بك أن تستبهم»(١٤٢).

٨ - مراعاة الفروق الفردية، فضرورة مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ كان مبدأ أساسيا يقيم عليه المربون المسلمون تعليمهم، لأنهم كانوا يدركون تمام الإدراك ما بين الناس من اختلاف وتفاوت في الخصائص والمزايا، كما كانوا يدركون أيضاً أهمية الوعي بهذا وهم يتعاملون مع التلاميذ لأن هذه الفروق يؤيدها الواقع الملموس ويعترف بها الدين الإسلامي الحنيف، ولا يسع أي مرب في أي عصر وفي أي دين أو ثقافة إلا أن يعترف بوجودها ويراعيها في طرق وأساليب تدريسه إذا أراد لها أن تكون مسايرة للفطرة والواقع وأن تكون ناجحة فيما ترمي إليه(١٤٣).

---

(١٤٢) محمود قمبر: **دراسات تراثية في التربية الإسلامية**. دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٧، م٢، ص٢١٤.

(١٤٣) عمر محمد التومي الشيباني: **فلسفة التربية الإسلامية**. المنشأة العامة للنشرو التوزيع، طرابلس، ١٩٨٣، ص٤٤٢.

ومن أدق ما سيق برهاناً على ذلك قول القابسي رداً على من سأله عن إمكان استعمال التعليم الجماعي في تحفيظ القرآن، إذ قال[١٤٤]: «وسألت: هل للصبيان الصغار أو الكبار البالغين، أن يقرءوا في سورة واحدة وهم جماعة على وجه التعليم؟ فإن كنت تريد يفعلون ذلك عند المعلم فينبغي على المعلم أن ينظر فيما هو أصلح لتعلمهم، فليأمرهم به، أو يأخذ عليهم فيه، لأن اجتماعهم في القراءة بحضرته يخفي عنه قوى الحفظ من الضعيف. ولكن إذا كان على الصبيان من ذلك خفة فيخبرهم أنه سيعرض كل واحد منهم في حزبه...».

جمهور التعليم:

في كل آية قرآنية وجهت إلى ضرورة التفكير والتعلم والتعليم والنظر والتدبر، إنما هي خطاب إلى جميع الناس...

كذلك عندما وجه الرسول ﷺ إلى طلب العلم وإلى التناصح وتبادل المعرفة، لم يخص بخطابه مستوى طبقيا دون غيره..

التعليم إذن لكل الناس، لأن الله «رب العالمين» وليس رباً لقوم دون قوم. ولو درسنا جيداً نظام التعليم طوال العصور الإسلامية فسوف نجد - دون أدنى مبالغة - أنه فاق غيره - فيما تلى من عصور، فضلاً عما سبق - في توفيره لكافة الناس دون فروق اجتماعية أو اقتصادية.

ألم يكن التعليم يقدم مجاناً؟ ألم تخصص عطايا للطلاب؟

ألم يكن المسجد هو محور التعليم الإسلامي؟ إنه «بيت الله»، أبوابه مفتوحة لكل مسلم أيا كان لونه أو بلده أو مستواه الاجتماعي أو الاقتصادي. وصفحات التاريخ الشاهدة على كل ذلك مئات ومئات، مشهورة ومعروفة، ولذا لن نتوقف عندها طويلاً، وإنما نتوقف عند فئة واحدة نظراً لما أدت إليه

(١٤٤) أحمد فؤاد الأهواني، التعليم في رأي القابسي، ص٣٢٣.

التقاليد الاجتماعية - وليس الدين الإسلامي - من حرمانها طويلاً من حق التعليم، ألا وهي فئة «النساء».

فحديث «طلب العلم فريضة على كل مسلم» يشمل المسلمات باتفاق علماء الإسلام، وإن لم يرد فيه لفظ «ومسلمة»(١٤٥).

وقد أجمع المسلمون على أن كل ما فرض الله تعالى على عباده وكل ما ندبهم إليه، فالرجال والنساء فيه سواء، إلا ما استثنى مما هو خاص بالنساء لأنوثتهن في الطهارة والولادة والحضانة وما رفع عنهن من القتال وغير ذلك مما هو معروف.

وقد بلغ من عناية محمد رسول الله ﷺ وخاتم النبيين بتعليم النساء وتربيتهن أن ذكر فيمن يؤتيهم الله تعالى أجرهم مرتين يوم القيامة - أي مضاعفا - قوله: «أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران» فقرن ثواب التعليم والتأديب بثواب العتق الذي كان يرغب فيه كثيراً فوق ما شرعه الله تعالى فيه من أسباب تحريره وعتقه. والحديثه متفق عليه عن أبي موسى رضي الله عنه وله ألفاظ أخرى.

واشتركت النساء مع الرجال في اقتباس العلم بهداية الإسلام، فكان منهن راويات الأحاديث النبوية والآثار، يرويه عنهن الرجال والأدبيات الشاعرات، والمصنفات في العلوم والفنون المختلفة. وكانوا يعلمون جواريهم وفتيانهم كما يعلمون بناتهم(١٤٦).

ويقع البعض في خطأ غير مقصود وبحسن نية حينما يقول أن الإسلام أباح للمرأة أن تعلم وأن تعلم، فالوضع هنا وضع جواز وإباحة، والعلم

---

(١٤٥) محمد رشيد رضا: حقوق النساء في الإسلام، ص١٩.
(١٤٦) المرجع الأسبق، ص١٨.

والتعلم للمرأة ليسا فيما نفهم من الإباحة والجواز، بل ليس حقا من الحقوق، بل هو تكليف واجب ملزم، وكل آيات العلم في القرآن لم يخص به الرجال دون النساء، كتاب الله يبدأ بالعلم والقلم والإنسان، والإنسان هنا لعامة الجنس لا للرجال دون المرأة، والله تعالى خلق الإنسان علمه البيان، فالإنسان هنا لعامة جنس الإنسانية، لا للرجال دون المرأة(١٤٧).

القضية هنا قضية الإيمان، فهل من المباح والجائز على المرأة المسلمة أن تكون مؤمنة؟ ما يجوز على العلم يجوز على الإيمان لأن العلم من الإيمان، والنصوص صريحة كل الصراحة في أن من قال أن العلم ليس من الإيمان ولا من الجهاد، فقد نقص عقله ودينه، وإذا كان الفقيه الواحد أشد على الشيطان من ألف عابد، فالعلم من الإيمان، فهل يقال فيه بالجواز، وهل يقال فيه بالإباحة؟ أم هو تكليف؟ بل هو من جوهر إنسانية الإنسان. لهذا أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم.

واشتغل عدد من النساء بالتدريس، فقد كانت النساء تتلقى العلم عن الرجال ويقمن بالتدريس بدورهن للرجال، وقد اعترف بعض مشهوري الرجال بفضل النساء، فذكر ابن خلكان مثلا عن أم المؤيد زينب بنت الأشعري أنها كانت عالمة وأدركت جماعة من أعيان العلماء وأخذت عنهم رواية وإجازة، وله منها إجازة كتبتها في سنة ٦١هـ. كما يذكر عن الحافظ بن عساكر أن عدد أساتذته من النساء بلغ الثمانين. ويذكر عن طرفة بن عبدالعزيز بن موسى أنها تلقت العلم على عدد من مشهوري عصرها بالأندلس وأخذت عنهم كثيراً من كتبهم، وسمح لها زوجها بقراءة هذه الكتب على طلابها. وكان من النساء من يقوم بتدريس علوم الدين للنساء في الخوانق، وينقطعن للعبادة والتدريس كما في الأديرة(١٤٨).

---

(١٤٧) عائشة عبدالرحمن، في تعليق لها بندوة: مكانة المرأة في الأسرة المسلمة، المركز الدولي للدراسات والبحوث السكانية، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٧٧.

(١٤٨) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦، ٣٣٢.

ومن أبرز فئات جمهور التعليم كذلك: الأطفال، فلا نظن أننا نبالغ في كثير أو قليل إذا قلنا أن دور الطفولة يمثل الأهمية العظمى في تقرير أساس الحياة، وأن السلوك المفضل أو الفاسد للأفراد يعود إلى الأساليب التربوية الصالحة أو الفاسدة المتخذة في حقهم، ذلك أن الفرد يسير طيلة أيام عمره على تطبيق الأساليب والاتجاهات والمفاهيم التي نشأ عليها(١٤٩).

والطفولة لا تكون إلا عن زوجية، والزوجية من أب وأم، وأول ما يعنى به الإسلام أن يضمن وجود الطفل من أبوة، والإسلام لا يسمح بمجرد الزواج والإنجاب فحسب بل يجعل للحياة العائلية معنى قدسياً، وينظر إليها على أنها تحقيق لأغراض المولى تعالى، وإنجاب الأطفال وتربيتهم داخل الأسرة السوية، لهما في الإسلام اعتباران هامان(١٥٠):

١ - فالأطفال الذين ينشأون على المبادئ الإسلامية يمكنهم تخليد الرسالة الإسلامية مما يجعل الحياة تبدو في صورة جديرة بالإنسان أن يعيش فيها، ويتضح هذا الغرض في الدعاء الذي دعا به سيدنا إبراهيم: ﴿**والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما**﴾(١٥١)، كما يقول تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، أولئك هم المفلحون**﴾(١٥٢).

٢ - وتعتبر الأسرة وحدة الحياة الأساسية ومركز التفاعل البشري، ولهذا فهي المدرسة الأولى للسلوك الأخلاقي، فالطفل الذي يشب وفي قلبه الاحترام الواجب للوالدين، يتطور لديه هذا الإحساس من: وجوب

---

(١٤٩) محمد تقي فلسفي: الطفل بين الوراثة والتربية، تعريب فاضل الحسيني الميلاني، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، ١٩٦٩، جـ٢، ص٩٦.

(١٥٠) زينب حسن حسن، رعاية الطفولة، في الفكر التربوي العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص٩٨٥.

(١٥١) الفرقان/ ٧٤.

(١٥٢) آل عمران/ ١٠٤.

احترام الغير إلى إحساس عام باحترام كل من يسدي له جميلاً، ولهذا فكل ما قرره الإسلام من قواعد هادية للبناء السوي للأسرة إنما هو توفير تربية سوية لتنشئة الأطفال.

وهناك فئة من الأفراد كانت تعيش على هامش المجتمع وتحيا حياة مضطربة في جو من الحرمان والإحباط، هي فئة المعوقين، إعاقة جسدية - عقلية، تلك الإعاقة التي تؤدي إلى العجز الجزئي أو الشامل بالنسبة لبعض أفراد المجتمع بسبب ظروف خلقية أو وراثية أو صحية.

وقد صدرت إعلانات إنسانية وعالمية كثيرة تعكس منطقاً هاماً، لا يقنع بمجرد رعاية المعوقين وإعادة تأهيلهم، وإنما ينظر إليهم كطاقة بشرية اجتماعية اقتصادية أهدرها ويهدرها المجتمع، وأن علينا أن نؤسس وننظم الوسائل التي تيسر استعادة هذه الطاقات المتعددة، وهو ما يعني أن نبحث عن الوسائل التي تيسر دمجهم وتكاملهم في المجتمع ومشاركتهم في التنمية الاجتماعية والاقتصادية(١٥٣).

وقاعدة رفع الحرج بالنسبة لذوي العاهات، قاعدة معروفة في الإسلام، قال تعالى: ﴿**ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج**﴾(١٥٤).

وهناك سبل كثيرة تفيض بها مراجع ومصادر عدة تشير إلى القاعدة الشهيرة «الوقاية خير من العلاج»، ومن ثم ترشد إلى سبل توفير البيئة التي تؤدي إلى اجتناب ما يؤدي إلى الإعاقة نفسياً أو عقلياً أو جسمياً أو اجتماعياً.

---

(١٥٣) زينب حسن: تربية المعوقين، في (الفكر التربوي العربي الإسلامي)، ص١٠٠٨.
(١٥٤) النور/ ٦١.
(١٥٥) زينب حسن: تربية المعوقين، ص١٠١٩ وما بعدها.

وكذلك أشارت المصادر الإسلامية إلى سبل متعددة من شأنها أن تسهم لا في الوقاية فحسب، بل في العلاج كذلك(١٥٥).

آليات وضمانات:

وعرفت التربية الإسلامية عدداً من «الآليات» التي تيسر لطالب العلم طرق طلبه، وضمانات تعينهم على الاستمرار فيه، ويطول بنا المقام لو حاولنا أن نوفي هذه القضية حقها، ولهذا نكتفي بهذه الأمثلة المحدودة:

* اختيار الأستاذ، فعندما يعقد الطالب العزم على طلب العلم، وخاصة في مرحلته المتقدمة بعد أن يكون قد حفظ القرآن الكريم وبالتالي أتقن القراءة والكتابة، فإنه يملك حق اختيار من سيتعلم على يديه، سواء في نفس محل إقامته، وهذا كان نادراً إلا بالنسبة للمدن الكبرى، أو خارج هذا المحل بالرحلة إلى من يختار من الأساتذة، فقد كان هناك نفر من المشايخ الأعلام الذين اشتهروا بعلو كعبهم في العلم فجذبوا نحوهم أعداداً من طلاب العلم من أنحاء شتى من العالم الإسلامي.

وقد يحدث كثيراً أن يرحل الطلاب إلى مدن العلم دون اختيار مسبق للشيخ ومادته، إما للجهل بوجود الأعيان من شيوخ العلم، في عصور وبيئات لم تكن وسائل الإعلان فيها منتشرة وفعالة على النحو الذي نراه اليوم، وإما لعدم التثبت في اختيار نوع التخصص، وبالتالي عدم تحديد الشيخ الذي يعلمه(١٥٦).

وهنا كان على هؤلاء الطلاب أن يترددوا طويلاً على مجالس الشيوخ يستمعون إلى دروسهم، ويلاحظون طرائق تعليمهم ويقارنون بينهم، ثم يقررون أخيراً: أي مادة وعند أي شيخ. وقد تجسدت شهرة الأستاذ عادة في أمرين:

---

(١٥٦) محمود قمبر: **دراسات تراثية في التربية الإسلامية**. دار الثقافة، الدوحة، ١٩٩٢، م٣، ص٢٦٩.

- سمعة طيبة عن شخصية الأستاذ ترتبط بغزارة علمه، وجودة تدريسه وحسن حفاوته بالغرباء.
- كتبه المصنفة الفريدة في بابها والتي تمثل قيماً علمية رفيعة يروجها تلامذته ومؤيدوه في الآفاق(١٥٧).

* لم يعرف المسلمون طبقية العلم، ولم تحتكره الصفوة من أبناء القلة المميزة في المجتمع، بل كان العلم لكل الناس باختلاف طبقاتهم، وهذا ما أكده الإمام مالك عندما طلب منه الرشيد أن يحمل إليه كتابه الموطأ ليقرأه لأولاده في قصره ورفض مالك كل الإغراءات أو التهديدات مصراً على أن يكون علمه للعامة دون الخاصة، ويلقن الرشيد درساً أدبياً في إعلاء العلم والعلماء حين يقول له: «العلم يؤتى ولا يأتي»، ويخضع له الخليفة مؤمنا على كلامه، قائلا: «صدقت»، ثم يأمر أولاده فيقول لهم «اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس»(١٥٨).

وسار البخاري على نهج مالك رافضاً أن يحمل كتبه كالجامع أو التاريخ ويذهب إلى بيت أمير بخارى خالد بن أحمد الذهلي ليعقد له ولأولاده مجلساً خاصاً، ولرفضه هذا نفاه الأمير عن البلد.

لكن البعض يثير شبهة ضد التربية الإسلامية متهماً إياها بالطبقية مستنداً في ذلك إلى حديث نقل عن الرسول ﷺ قال فيه: «لا تعلموا أولاد السفلة العلم». والحق أن معنى الحديث لا ينصرف إلى شريحة اجتماعية متواضعة الحال ماليا واقتصاديا واجتماعيا، وإنما ينصرف إلى دنيء الخلق الذي لا تفلح معه أساليب التربية والتهذيب، أو الذي لم تهيأ طباعه وقدراته للتعليم المثمر المفيد. فالسبب ليس استناداً إلى «جنس» أو «طبقة» وإنما إلى «قدرة» و«استعداد»، فضلاً عن أن هذا الاستبعاد لا يكون من مبتدأ الأمر، بل يجيء بعد محاولات الواحدة تلو الأخرى.

(١٥٧) المرجع الأسبق، ص٢٦٨.
(١٥٨) المرجع السابق، ص٢٨.

إن الحقيقة الماثلة أمامنا أن التنوع سمة الحياة وغايتها، وأنها تنزع إلى تفاوت المزايا وحكمة التفاوت ظاهرة لأن الحياة تفتقر إلى المزايا إذا اقتصرت حركتها على تكرار صورة واحدة في كل فرد من الأفراد، ولكنها تزخر بالمزايا المجددة. وتستزيد من القدرات المتعددة، كلما طرأ بينها التفاوت في الصفات والتفاوت في الأنصبة(١٥٩).

ولكن هذا التعاون لا يرجع إلى عصبية في الجنس أو الأسرة، ففي القرآن الكريم نداءات من الله يوجهها إلى الإنسان كإنسان، توضح له السبيل إلى قضاياه الكبرى، ومن أهم هذه القضايا، نظرة الإنسان إلى جميع إخوانه في الإنسانية التي ينبغي أن تقوم على المساواة، كما مر بنا.

ومن هنا برز تكافؤ الفرص بين طلاب التعليم الإسلامي، فكان على المعلم ألا يكون في مجلسه مكان مميز لأحاد الناس، بل يكون الجميع عنده سواء، ومن سبق من الطلاب إلى موضع - من المكان المخصص لهم جلس فيه، وليست المسألة مسألة الجلوس فحسب، وإنما كان على المعلم أمر يعامل الفقير معاملة الغني(١٦٠).

* تمتع طلاب التعليم في المدارس والمساجد بأهم ميزة تيسر الحصول على حق المتعلم وتضمن استمرار طلبه، ألا وهي «المجانية»، فلم يكن يطلب من طالب العلم أن يدفع تكلفة تعليمه، وذلك بسبب تلك الظاهرة الفريدة التي عرفتها الحضارة الإسلامية ألا وهي «الأوقاف»، فلقد حرص كثير من أغنياء المسلمين على أن يخصصوا جزءاً مما يملكون يوقفونه للإنفاق منه على مؤسسات التعليم سواء من حيث الإقامة والإنشاء أو المصروفات الجارية، أو إعاشة التلاميذ مأكلاً وملبساً أو لترتيب رواتب للمعلمين.

---

(١٥٩) عباس محمود العقاد: **الفلسفة القرآنية**. دار الهلال، القاهرة، سلسلة كتاب الهلال (٢٢٩)، ١٩٧٠، ص٢٤.

(١٦٠) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص٢٩١.

وقد حرص الواقفون في العصر المملوكي على أن يلحقوا بكل مدرسة «خزانة كتب» يرجع إليها المدرسون، ولا سيما الفقراء منهم، مثال ذلك ما نصت عليه وثيقة وقف السلطان الغوري وبها خلوة كبرى معدة لخزن الكتب، بها جنبات خشب نقي، يمنة ويسرة وصدرة، مثبتة معدة لحفظ ما فيها من كتب العلم الشريف الموقوفة على طلبة العلم الشريف لانتفاعهم بها في المدرسة المذكورة، ومن ذلك أيضا ما نصت عليه وثيقة وقف الأبشادي أن الواقف وقف كتبه على الفقراء والمساكين بالجامع الأزهر الذين لا يملكون من الكتب إلا اليسير جداً ينتفعون بذلك، الانتفاع الشرعي»(١٦١).

والدافع الأساسي لكل هذا هو إيمان الواقفين بأن هذه الأوقاف صورة من صور الصدقة الجارية التي حث عليها الإسلام، وأن التعليم باب من أبواب «المعروف» و«الخير» التي كلف المسلمون بالسعي إليها.

ومن هنا أكد الإمام الغزالي على المعلم أن «يقتدي بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فلا يطلب على إفادة المعلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً، بل يعلم لوجه الله وطلباً للتقرب إليه، ولا يرى لنفسه منّة منه عليهم، وإن كانت المنّة لازمة عليهم»(١٦٢).

وكان المحور الأساسي للتعليم الإسلامي هو القرآن الكريم، من هنا استند «القابسي» على حجته لتبرير مجانية التعليم:

أ - أن القرآن يعلم لله، فلا ينبغي أن يؤخذ عنه عوض. وهذه حجة دقيقة تطالب المعلمين أن يعملوا في سبيل الله.

---

(١٦١) محمد محمد الأمين: **الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر**. النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠، ص٢٥٥.

(١٦٢) أبو حامد الغزالي: **إحياء علوم الدين**. المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، (د.ت)، ص٥٦.

ب - أن أئمة المسلمين في صدر الأمة، ما فيهم إلا من قد نظر في جميع أمور المسلمين بما يصلحهم في الحاجة الخاصة وفي الحاجة العامة، فلم يبلغنا أن أحداً منهم أقام معلمين يعلمون للناس وأولادهم من صغرهم في الكتاتيب، ويجعلون لهم على ذلك نصيباً من مال الله. وهذه حجة تعتمد على التقاليد الموروثة وعلى العادات التي كانت تصدر عن السلف الصالح، وأعمال أئمة المسلمين حجة على غيرهم وأصل من أصول الدين.

خاتمة

الذي يمكن أن ننتهي به من هذه الدراسة، هو أن الإنسان في أمتنا العربية الإسلامية يواجه عقبات ومشكلات عدة تحول بينه وبين الاستمتاع المطلوب بما له من حقوق. ولقد حفلت الكثير من المواثيق حقا بمثل هذه الحقوق، وفاضت أنهر دراسات وبحوث بها، لكن القضية ليست قضية نصوص وخطب، بقدر ما هي قضية «تربية»... تنشئة للإنسان المسلم على ممارسة حقوق الإنسان، ومن هنا فإن تمتع هذا الإنسان بحق التعليم من شأنه أن يمهد السبيل إلى ذلك، والأهم من هذا هو ما يعيشه المجتمع المسلم من قيم مستمدة من الإسلام وما يقوم عليه من أسس تستنبط من العقيدة الإلهية. ودرجة توافر الإيمان بعقيدة الإسلام إيماناً تؤججه المشاعر السوية ويقوم على العقل الرشيد ويشخصه سلوك مستقيم.